الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصف

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ ص فى مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء ـــ القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٣١ | أول ربيع سنة ١٣٥٧ — أول مايو سنة ١٩٣٨ | السنة الثانية

فهرس العدد

صفحة			
٣٤٦	الخاتم	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ إبرهيم عبدالقادر المازنى
٣٥١	الصقر	للقصصى الايطالى بوكاتشو	بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج
٣٥٥	أمنية	أقصوصة مصرية	بقلم الأديب عبد الحميد جودة السحار
٣٥٨	شجار أطفال	للكاتب التركى الكبير رشاد نورى	بقلم الأستاذ السيد خلف شوقى الداوودى
٣٦٤	مؤذن بغداد	من القصص العربى	بقلم الأديب محمد فهمى عبد اللطيف
٣٦٨	ماريوتو	للكاتب الايطالى ماسوشيو سالرنيتانو	بقلم الأستاذ دريني خشبة
٣٧٣	يوم اللقاء	من التاريخ الاسلامى	بقلم الأستاذ على الطنطاوى
٣٨٤	الزوجة الموروثة	للكاتب الروسى اسطفان بوريانف	بقلم الأستاذ مهد لطفى جمعة
٣٩٢	حاجى بابا فى انكلترا	تأليف جيمز موير	بقلم الأستاذ عبداللطيف النشار

الخاتم

أقصوصة مصرية

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

« خبئي خاتمي ... بسرعة ! »

« ماذا ؟ »

« خذي ... أخفيه ... ألا ترين هؤلاء الثلاثة المقبلين في مثل ثياب الأوشاب ؟ أسرعي ... يا لك من بلهاء ... لا بأس ، سأتركه هنا ؟ فما أظن أحداً يلمس هذين أو يدس يده بينهما »

ودست الخاتم بين ثديي أختها الناهدين الراسخين وتركتها ومضت

وكان الثلاثة الأوشاب ، أو الذين آثروا أن يتنكروا في هذا الزي يتنقلون بين السيدات على عجل ، وينزعون عنهن ما يسهل نزعه من الحلى ، ويتركونهن ما بين ذاهلة مفتوحة الفم جاحظة العين ، ومغشي عليها من الخوف ، وصارخة تستغيث وتصيح : « أدركوني ... يا بوليس ! » وكان بعض الرجال قد حاولوا أن يصدوا هؤلاء الأوباش ولكن فوهات المسدسات ردتهم وأرخت أيديهم إلى جنوبهم وألصقت ظهورهم بالجدران

وتقدم أول الثلاثة من جليلة ، وهي واقفة تنتفض ولا تكاد تقوى ساقاها على حملها ، وترى الكرسي إلى جانبها ولا يخطر لها أن تقعد لفرط ما انتابها من الاضطراب والجزع ، وتناول كفيها ورفعهما وهو يتأملهما ثم سعد عينه إلى وجهها وقال : « غريب ! فتاة جميلة مثلك لا تلبس حلياً ؟ وهؤلاء جميعاً محشودون هنا احتفالا بك ؟ غريب ! »

وهوى بكفيه إلى فخذيها يتحسس ثنية الجوربين عليهما عسى أن تكون قد خبأت هناك شيئاً ، ولما لم يجد شيئاً انصرف عنها وهو يهز رأسه مستغرباً

وغادر الثلاثة البيت ، كما دخلوا ، من الباب ، صفاً واحداً لا متريثين ، ولا عجلين ، ولا متلفتين ، كأنما كان دخولهم وتفتيش السيدات أمراً عادياً مما يحدث كل يوم ! فعلت الأصوات وانطلقت ، بعد طول الاحتباس ، وتصادمت الأجسام بعد أن استردت قدرتها على الحركة

ودخل صاحب البيت وهو ينفخ ويمسح العرق المتصبب ولحظ على كرسي خف به الموجودون وألحوا عليه بالأسئلة ، وهو لا يجيب . ثم انتظمت أنفاسه فقال :

« اطمئنوا ... لم يضع شيء ... كل ما أخذوه ألقوه في الدهليز ... يظهر أنها مزحة . ألا قبح الله هذه المساكن الخلوية ... لو لم يكن بيتنا بعيداً عن المساكن لما اجترأ هؤلاء الأشرار أن يركبونا بهذا المزاح البارد المزعج ... ولكن لا بأس ... والآن سيداتي وسادتي ، تستطيعون أن تعودوا إلى الرقص والمرح »

وتفرق المدعوون يستعيدون ما فقدوا ، وأقبلت « إحسان » على أختها تقول لها :

« هاتي الخاتم يا جليلة ... »

ولم تتم كلامها ، إذا صح أنها كانت تريد أن تقول غير ذلك ، فقد دخل بينهما في هذه اللحظة

شاب فى زى شيطان ، وأحاط خصر جليلة بذراعه وهو يقول :

« هذه رقصتى »

فهزت إحسان رأسها وقالت لنفسها : « لا بأس ولا داعى للعجلة ، فان الخاتم فى أمان ولن يخطفه مراقصها وإن كان عفريتاً »

وقال العفريت لجليلة وهو يطوف بها : « ما أحلى أن ترقص الشياطين والملائكة معاً ! » وصوب عينه وهو يهمس بذلك إلى صدرها ، وكان يدنيها منه ويشد عليها ، وكانت هى تحاول عبثاً أن تتخلص من هذا الذى يشبه العناق ، فيخيل إليها أن حدقتيه الباديتين من ثقبى القناع تومضان ساخرتين ، فتقول له بصوت كأنما يراه الضعف والتفتر والخوف والرغبة وهذا الخدر الذى صارت تحسه يدب فى جسمها :

« أرجو ... إسمح لى » ثم تجيل عينيها فيما حولها وهى تحدث نفسها أن عليها أن تتفلت من أسر يديه فلا يزيدها ذلك إلا اضطراباً

وأسر إليها : « آسف ... هل تخرج إلى الشرفة ؟ »

فقالت : « نعم ... من فضلك لا أريد أن أبقى هنا ... سأذهب إلى غرفتى »

فقال : « سيكون ماتريدين ياعصفورتى الجميلة »

وظل يراقصها وهو يتخلل بها المدعوين حتى خرجا الى الشرفة ، ثم مال بها يسرة حتى وقفا عند باب ، وهناك انحنى عليها ، وحناها على ذراعه ، فانقطع رباط ثديها ، وسمع هو الصوت فابتسم واعتدل ، ودفع أصابعه بسرعة وخفة والتقط الخاتم ، وقال وهو يلثمها : « والآن أستودعك الله ... سأذهب أنا أيضاً ، فما أريد أن أراقص أحداً غيرك ... ولكنى أرجو أن تقولى لإحسان حين ترينها فى الصباح إن الشيطان لا ييأس ... وإلى اللقى يا فتاتى الحسناء »

* * *

واستيقظت جليلة عند الضحى ، فكان أول ما تذكرته هذا الشيطان الذى لم تر وجهه ، ولكنها لا تزال تشعر كأن ذراعه على خصرها ، ودخلت عليها إحسان وهى تحلم بهذا وعيناها مفتوحتان ، فاحتاجت أن تهزها — وإن لم تكن نائمة — لتردها إلى هذا العالم ، وقالت لها : « الخاتم ... هاتيه »

فأفاقت جليلة جداً لما دست أصابعها بين ثديها فلم تجده ، وقالت وهى تنهض وتهز قميصها وتنفضه : « لقد كان هنا ... لا أذكر أنى أخرجته ... لقد كنت أرقص مع أحد ضيوفك (واضطرم وجهها لهذه الذكرى) ثم عدت إلى غرفتى ونمت ... »

فصاحت بها إحسان : « من كان هذا ؟ إن المدعوين ليسوا لصوصاً ... تذكرى أين وضعته »

قالت جليلة : « لا أعرفه ، لقد كان فى زى شيطان ... ورجانى وهو يودعنى أن أقول لك إن الشيطان لا ييأس »

فقالت إحسان : « لعنة الله عليه ... لن أرى الخاتم بعد ذلك أبداً . لقد نجح حيث فشل لصوصه الذين جاء بهم »

فقالت جليلة : « لست فاهمة ... إنه أحد الضيوف ... وإذا كنت تعرفينه فلا شك أنه سيعيد إليك الخاتم »

فصاحت إحسان : « يا بلهاء ... إنه ليس

شاب فى زى شيطان ، وأحاط خصر جليلة بذراعه وهو يقول :

« هذه رقصتى »

فهزت إحسان رأسها وقالت لنفسها : « لا بأس ولا داعى للعجلة ، فان الخاتم فى أمان ولن يخطفه مراقصها وإن كان عفريتاً »

وقال العفريت لجليلة وهو يطوف بها : « ما أحلى أن ترقص الشياطين والملائكة معاً ! » وصوب عينه وهو يهمس بذلك إلى صدرها ، وكان يدنيها منه ويشد عليها ، وكانت هى تحاول عبثاً أن تتخلص من هذا الذى يشبه العناق ، فيخيل إليها أن حدقتيه البادیتين من ثقبى القناع تومضان ساخرتين ، فتقول له بصوت كأنما يراه الضعف والتفتر والخوف والرغبة وهذا الخدر الذى صارت تحسه يدب فى جسمها :

« أرجو ... إسمح لى » ثم تجيل عينيها فيما حولها وهى تحدث نفسها أن عليها أن تتفلت من أسر يديه فلا يزيدها ذلك إلا اضطراباً

وأسر إليها : « آسف ... هل نخرج إلى الشرفة ؟ »

فقالت : « نعم ... من فضلك لا أريد أن أبقى هنا ... سأذهب إلى غرفتى »

فقال : « سيكون ماتريدين ياعصفورتى الجميلة »

وظل يراقصها وهو يتخلل بها المدعوين حتى خرجا الى الشرفة ، ثم مال بها يسرة حتى وقفا عند باب ، وهناك انحنى عليها ، وحناها على ذراعه ، فانقطع رباط ثديها ، وسمع هو الصوت فابتسم واعتدل ، ودفع أصابعه بسرعة وخفة والتقط الخاتم ، وقال وهو يلثمها : « والآن أستودعك الله ... سأذهب أنا أيضاً ، فما أريد أن أراقص أحداً غيرك ... ولكنى أرجو أن تقولى لإحسان حين ترينها فى الصباح إن الشيطان لا بيأس ... وإلى اللقى يا فتاتى الحسناء »

* * *

واستيقظت جليلة عند الضحى ، فكان أول ما تذكرته هذا الشيطان الذى لم تر وجهه ، ولكنها لا تزال تشعر كأن ذراعه على خصرها ، ودخلت عليها إحسان وهى تحلم بهذا وعيناها مفتوحتان ، فاحتاجت أن تهزها — وإن لم تكن نائمة — لتردها إلى هذا العالم ، وقالت لها : « الخاتم ... هاتيه »

فأفاقت جليلة جداً لما دست أصابعها بين ثديها فلم تجده ، وقالت وهى تنهض وتهز قميصها وتنفضه : « لقد كان هنا ... لا أذكر أنى أخرجته ... لقد كنت أرقص مع أحد ضيوفك (واضطرم وجهها لهذه الذكرى) ثم عدت إلى غرفتى ونمت ... »

فصاحت بها إحسان : « من كان هذا ؟ إن المدعوين ليسوا لصوصاً ... تذكرى أين وضعته »

قالت جليلة : « لا أعرفه ، لقد كان فى زى شيطان ... ورجانى وهو يودعنى أن أقول لك إن الشيطان لا بيأس »

فقالت إحسان : « لعنة الله عليه ... لن أرى الخاتم بعد ذلك أبداً . لقد نجح حيث فشل لصوصه الذين جاء بهم »

فقالت جليلة : « لست فاهمة ... إنه أحد الضيوف ... وإذا كنت تعرفينه فلا شك أنه سيعيد إليك الخاتم »

فصاحت إحسان : « يا بلهاء ... إنه ليس

شيئاً ... هو ابن زوجي ... أسعد ... وهذا خاتم أمه ، وكان يريد أن يحتفظ به ، ولكني أغريت أباه بأن يعطينيه ؛ فهو يكرهني ويحقد علي ، وقد فسد ما بيننا بعد ذلك فآثر أن يعيش وحده ، فإن به غنى عن أبيه ، ولا يزورنا قط ... والآن قد استرده ... »

* * *

ولم تر جليلة أن تنهض عن سريرها فبقيت مستلقية عليه تفكر ... إذن لم يكن أسعد يراها جميلة ، ولم يكن يدعوها عصفورته ، ويهمس في أذنها بألفاظه المعسولة إلا ليخدعها ، وكان الخاتم همه الوحيد ... وكل ما يبغيه هو أن يسترده ، على حين كانت هي لبلاهتها تتوهم أنه مفتون بها !

ودار في نفسها خاطر آخر أوجع وآلم ، ذلك أنها عاشت إلى الآن بعيدة عن أختها أكثر الوقت لأنها كانت في المدرسة ، فهل كل ما دفع أسعد إلى مغادرة بيت أبيه هو انتزاع الخاتم منه ، وإيثار امرأة أبيه به عليه ؟ ! ألا يمكن أن يكون قد رأى من إحسان ما جعله يفر منها حرصاً على كرامة أبيه ؟ ولكن جليلة نفت هذا الخاطر المنكر الذي أدارته الغيرة في نفسها

ولكنها لم تكن مخطئة ، فما فرّ أسعد من بيت أبيه إلا لأن إحسان تطارده فيه ، وإن كانت لم ترد على التودد

وهكذا اتفق في ذلك اليوم أن كانت اثنتان تفكران في أسعد — جليلة وهي راقدة على سريرها تتمنى أن يعود لتراه كما هو لا في زيّ شيطان ، وإحسان وهي تروح وتجيء في البيت ، تدعو الله أن يظل أسعد بعيداً مخافة أن يفتتن بأختها الحسناء الصابحة الوجه ...

ومضت الأيام ، وفي نفس كل منهما أمنيتها ، وكانت جليلة تجد نفسها على الأيام عاجزة عن إحسان الظن بأختها إحسان ، وكان استبداد هذا الخاطر بنفسها وإلحاحه عليها على الرغم من مجاهدتها له وثورتها عليه ، يثيران غيرتها ويدفعانها إلى العناد ، فتأبى أن تقبل من أختها وزوجها شيئاً ، وترفض أن ترافق أختها إلى حيث تذهب ، وتصر على البقاء ، وتطيل خلوتها بنفسها

وفي مساء يوم ، دخلت غرفة المكتب لتعيد كتاباً وتستعير غيره ، فاتفق أن لمست أصابعها أوراقاً على المكتب فأطارتها ، فانحنت لتعيدها إليه ، فاذا بها تقرأ في واحدة هذه الرسالة الوجيزة إلى زوج أختها :

« آسفة جداً ، وقد تركت لك رسالة وردتني من أسعد وهي تقص عليك القصة كلها ، فلا حاجة بك إلى شرح مني ، فأستودعك الله

إحسان »

فقرضت جليلة أسنانها ، ومزقت الرسالة على غير عمد منها ، ثم نظرت في الورقة الأخرى التي ذكرتها إحسان في كتابها فقرأت فيها :

« عزيزتي الجامدة المتعبة

لقد يئست ، وإنك لتعلمين أني لا أستطيع أن

أزورك فى هذا البيت ، ولكن فى وسعك أنت أن تزورنى ، ويجب أن تزوريني ، فان هناك أمراً أريد أن نتفق عليه . واعلمى أنى لم أذق طعم الراحة مذ استعدت الخاتم »

ففهمت كل شىء ، ولم يخف عليها أن هذه الرسالة لها ، لا لأختها ، ولكن الذى لم تستطع أن تفهمه هو أن تخاطر أختها على هذا النحو ، وتهجر بيتها وزوجها وتذهب إلى من لا يريدها ... إذن يجب أن تذهب هى إلى بيت أسعد لتتدارك الأمر ، وتصلح الخطأ وتمنع الفضيحة

ولم تجد عناء فى دخول البيت بلا استئذان ، فقد كان بيتاً صغيراً ، تحيط به حديقة ، ومن السهل التسلل إلى أية غرفة ، إذا كان هناك شباك أو باب مفتوح

ودخلت حتى صارت فى غرفة تتصل بأخرى بباب موارب ، فوقفت وراءه ساكنة فقد سمعت أصواتاً ، وإذا بأسعد يقول :

« إنى لم أكتب إليك هذه الرسالة ، وأنت تعلمين ذلك »

وقالت الأخت الغادرة : « بالطبع أعرف هذا . إن هذه الفتاة التى تفتنك وتسبيك وتسلبك لبك ، لم ترد على أن تضحك مقهقهة لما قرأت رسالتك إليها ... إن قلبها من حجر ... أو هو لوح من الثلج ... »

فسألها : « هل تعنين أنها لا تبادلنى حبًّا بحب وأنها لن توافق على الزواج ؟ »

فضحكت وقالت : « إنها لا تشعر أنك موجود فلا تخدع نفسك ، وخير لك أن تقصر ... »

ونهض أسعد — فقد سمعت جليلة حركة تدل على ذلك — وقال وهو يتمشى فى الغرفة :

« إنك لست أختاً لها ... لا يمكن أن تكونى أختها ... أنت ... أنت ... لا أعرف ماذا أنت ، ولكنى أعرف أنك ماكرة خبيثة ، وكل عجبى أن تكون هذه الفتاة الطيبة الساذجة أختك ... مستحيل »

وفى هذه اللحظة دق الجرس ففتح الخادم الباب ؛ ودخل الزوج — زوج إحسان — يمشى بخطى سريعة ، ومن حسن الحظ أنه دخل من ناحية أخرى فلم ير جليلة ، وأبصر زوجته على أريكة ، والسيجارة بين أصابعها ، وابنه يتمشى مطرقاً ، فوقف ونظر منها إليه ثم قال :

« هل هذه الرسالة منك يا أسعد ؟ »

فنظر إليها أسعد ثم قال : « نعم يا أبى »

وفى هذه اللحظة خطر لجليلة خاطر بمثل سرعة البرق ، ففتحت الباب وهي تقول : « هذا أنت يا عمى ! ! أوه ما هذا الذى بيدك ... رسالة أسعد إلىّ ؟ أشكرك ... لقد خفت أن تكون قد وقعت فى يد أختى ، فتتبعنى إلى هنا »

فنظر الرجل إلى الرسالة التى فى يده ، ثم رفع عينيه إلى ابنه ، وتنفس الصعداء ، ثم التفت إلى جليلة وسألها :

« أهى رسالة منه إليك ؟ »

فقالت : « بالطبع ! ولن تكون غيرى ؟ إن أختى لا تحبه ، فهو لا يجيء إلى بيتك ، ولهذا طلب منى أن أجيء أنا إليه ، ولما رأيت أن أختى جاءت اختبأت ، لأن أسعد أشار علىّ بذلك ووعد أن يتخلص منها بسرعة فانها تعترض جداً على أن أتصل بأسعد »

وهنا تناول أسعد يد جليلة وقال : « إذا كان لا مانع عندك يا أبى من زواجنا ، فأرجو أن تقنع زوجتك بالموافقة »

فقال الرجل : « إن اعتراضها لا يمكن أن يكون إلا سخيفاً . تعالى يا إحسان . لماذا لم تحدثينى بكل ذلك من قبل ؟ كان يجب أن تشاوريني فان جليلة كبنتى ولها علىّ حقوق ... على كل حال حصل خير ... تعالى نخرج ... ولندعهما ... »

* * *

وسأل أسعد :

« أظنك لم ترى رسالتى إلا بعد أن خرجت أختك »

فقالت جليلة : « صحيح ، وقد مزقت كتابها إلى أبيك ، ولكنها لا تعرف ذلك ، فستظل قلقة لا تدرى هل عرف زوجها أنها همت بهجره أو لم يعرف »

فقال أسعد : « إن هذا القلق أقل ما تستحق . هاتي قبلة ، ولنخرج إلى السينما ... »

ونزع الخاتم من إصبعه ووضعه لها فى أصبعها

ابراهيم عبد القادر المازنى

الصيف خفيف هذا العام

لأن

شركة مصر للغزل والنسج

تقدم لكم المنسوجات القطنية

معتدلة فى أثمانهـــــا .. جميلة فى ألوانهـــــا

فبادروا بأخذ طلباتكم

الصقر

للقصصي الإيطالي بوكاتشيو

بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج

كان بفلورنسا شاب من النبلاء الأغنياء يدعى فريدريك ألبيريني من أسرة عريقة في المجد ، وقد هذبه الفن والطبيعة وجعلا منه فتى كاملا كيساً لا نظير له بين أبناء النبلاء التوسكانيين ، وقد وقع في حبائل الحب كما جرت العادة بين أترابه ممن هم في سنه من السراة ، فهام بسيدة من الأعيان تدعى جان كانت تعتبر من أجمل وأحب نساء فلورنسا ، ولم يدع وسيلة لاستمالتها إلا نفذها ، من ولائم فاخرة وألعاب فروسية باهرة ، وهدايا عظيمة . كانت هذه السيدة متمسكة بالتقوى والفضيلة ولم تحفل كثيراً بهذه النفقات الجنونية ، ولكنها لم تحتقر قط هذا الشاب الظريف . لم يتطرق اليأس ولا الملل إلى فريدريك واستمر في طريقه وإسرافه حتى أضاع ثروته ولم يبق لديه إلا شيء قليل يعيش به في حالة بؤس لم يدخر من ماضيه الفخم غير بازي مدرب على الصيد ، ولقد أصبح أشد تعلقاً بحبيبته رغم فقره المدقع الذي أوقعته فيه ، ورأى أنه لا يستطيع أن يعيش عيشة تليق به في المدينة ، فصمم على الاعتكاف في البقية الصغيرة الباقية من أملاكه في الريف ، فكان يصطاد في أغلب الأحيان بصقره ليسرى عن همومه وليكفيه مؤونة السؤال . استمر على تلك الحال ردحاً من الزمن مرض في أثنائه زوج حبيبته ثم مات ، وقد أوصى بثروته العظيمة إلى ابنه الصغير ، وبموته دون أن يعقب ينتقل الميراث إلى أمه التي كان يحبها زوجها حباً يقرب من العبادة

أقبل الصيف فذهبت الأرملة كعادتها لتصطاف في أملاكها في الريف وكان بيتها قريباً من بيت فريدريك . وبمناسبة هذا الجوار تعرف ابنها بفريدريك وكان يتردد عليه ويلهو بكلاب صيده وطيوره ، وقد شاهد البازي الذي تحدث الناس عن مهارته فتعلق به ، ولم يستطع أن يطلبه منه لأنه كان يعرف شدة تعلق فريدريك به ، ولما علم أنه يستحيل عليه أن يحوزه ساوره الهم والقلق حتى مرض ، ثم عرف والدته بسبب مصابه قائلا : «أماه ، لو كنت تتمكنين من الحصول على بازي فريدريك لعاجلني الشفاء وعاودتني الصحة » صمتت الأم هنيهة وسبحت في أحلامها وتأملاتها فماذا تعمل مع من أحبها طويلا وبدد ثروته لاسعادها وهنائها فكانت تقابل منه هذا العطف بالفتور ، وكيف تستطيع أن يطلب منه أعز شيء لديه ومابه يعيش ويحصل على قوته من الصيد به ، وهل يحسن أن تحرم نبيلا من أنفس شيء لديه ؟ احتارت في أمرها ولم تدر ما ذا تجيب ابنها والتزمت الصمت ، ولكن الطفل ما فتئ مهموماً ملحاً في طلبه ، وفي نهاية الأمر تغلب الحب البنوي على كل اعتبار وعزمت على إرضاء ولدها بأي ثمن كان وصممت أن تعرفه بأنه سينال البازي وستذهب في طلبه وقالت له : «لا تحزن يابني وفكر في شفائك وصحتك ، وأول شيء سأعمله في الصباح هو

الذهاب لإحضار الصقر فسر الولد لهذا الوعد وتحسنت صحته فى المساء

وفى الصباح ذهبت أمه وإحدى السيدات إلى بيت فريديريك ، ولما دخلت وجدته فى الحديقة ينظمها لأن هذا اليوم لم يكن مناسباً للصيد بالبازى، وقالت للخادم أن يعلن مجيئها لتحدثه فى شأن من الشئون . تصور أيها القارىء دهش فريديرك ومفاجأته بهذا الخبر السار ، فطار من الفرح عدواً لاستقبالها، وسلم عليها بكل احترام من بعيد، فتقدمت إليه مدام جان وحيته بكل لطف وأدب ، وبعد تبادل التحية قالت له : «لقد أقبلت ياسيد فريديريك لأكافئك على العناية التى بذلتها حينما أحببتنى حباً يزيدعلى المعقول، والمكافأة هى حضوري أنا والسيدة لنتناول الغداء معك » فأجابها بكل لطف وتواضع « إننى لم أخسر شيئاً قط لأجلك، بل بالعكس فانك أعددتنى لكثير من المزايا ، ولئن عرفت بشىء منها فالفضل راجع إلى العواطف التى نفحتنى بها ؛ وهذه المكرمة التى منحتنيها اليوم لجليلة جداً وقد أثلجت صدرى وشرحت فؤادي ؛ ومع أننى فقير فإننى لا أريد أن أبيع هذه المنة بثروتى التى فقدتها» وبعد هذه المجاملة اللطيفة صحبها إلى الحديقة وترك بصحبتها البستانية وصاحبتها التى أقبلت معها ، وذهب ليهيئ الطعام . وهذا النبيل الشريف لم يشعر فى حياته بقسوة وطأة الفقر مثل ما شعر بها في هذا اليوم الذى أقبلت فيه أعز الناس لديه ، وكان بوده أن يهيئ لها وليمة فاخرة ، فما باله إذا لم يجد شيئاً لديه فى هذه اللحظة الحرجة ؟ فاستشاط غضباً ولعن ثروته الضائعة وأخذ يهرول فى أنحاء البيت، والأدهى أنه لم يكن عنده درهم ولا شىء يقوّم بقيمة حتى يرهنه . ولما اقتربت ساعة الغداء حار فى أمره فوقع نظره بغتة على البازى الذى كان مطمئناً فى قفصه فصمم على تضحيته ليقدم شيئاً مناسباً للأيم التى شرفته بزيارتها ، ثم لوى عنقه ونتف ريشه ثم وضعه في النار . ولما نضج الطعام ذهب إلى الحديقة ليدعو السيدة وصاحبتها للطعام ؛ وبعد انتهاء الغداء دار حديث لطيف، ثم رأت مدام جان أن تطلع فريديريك على سر زيارتها قائلة : « أتذكر أيها السيد كل ما صنعته من صنوف العناية وحبائى الشديد الذى جعلك تظن بأننى قاسية متوحشة ، ولا أشك فى أنك تدهش حينما تعلم السبب الحقيقى الذى قادنى إليك ، ولو كان لك أولاد لكنت تعرف قوة الحنو الأمى ، وإنى واثقة أنك ستعذرنى ، ولكنك لا أولاد لك، ولى ولد واحد ولا أستطيع أن أهرب من القوانين العامة للأمهات . وهذا الذى يضطرني أن أتعدى المعقول وأخالف إرادتى وأطلب منك شيئاً أعلم أنك تعزه كثيراً لأنه أصبح لك العزاء الوحيد لضياع ثروتك وما هو إلا بازيك الذي أطلبه . إن ابنى مريض وهو تواق للحصول على الصقر وأخشى إن لم أحضره له أن يقتله الحزن ، ولذلك أتوسل إليك لا بحق الصداقة فلست مديناً لى فيها بشىء بل أتوسل إليك بطيبة قلبك وحبك للخير العام الذى لم يكذب فيه الظن قط والذى يميزك عن جميع الناس ، وسيكون

لك ابنى مديناً بصحته وربما بحياته ، وستتملك بهذا الصنيع قلبه وقلبى مدى الحياة »

ولما رأى فريديريك أنه لا يستطيع إرضاء هذه السيدة لأنه أطعمها ما تطلبه خنقته العبرات قبل أن يفوه برد ، فظنت السيدة أنه يبكي حزناً على فقد بازيه وكادت تغير رأيها فيه وفضلت أن تتريث إلى أن يجيب فقال لها : « إننى منذ فتنت للمرة الأولى بمحاسنك تيقنت أن الثروة كانت تناوئنى فى كثير من الأمور وكنت أشكو من شدة ما تفرضه على ولكن كل ما مر علىّ من بؤس وآلام لم يك شيئاً بجانب بلية اليوم ، وستترك فى قرارة نفسى مرارة لا تفارقنى . هل تستطيع المصائب أن تسدد إلى طعنة أفظع وأقسى من صدمة اليوم حينما أرى أنك تفضلت بزيارتى فى هذا البيت الحقير مع أنك لم تتنازلى بزيارتى حينما كنت غنياً ثم تطلبين منى شيئاً لا أستطيع أن أحضره لك . ما أقساك أيها الحظ العاثر الذي ما فتىء يضطهدنى . لقد تحملت بصبر جميل أصناف الرزايا والمحن ولكننى رزحت تحت هذه الصدمة إذ ليس عندى الآن بازىّ ، وبمجرد ما شرفتنى وأظهرت رغبتك فى تشريق بالغداء معى فكرت أن أحضر غداء أرقى مما اعتاده الناس فذبحت الصقر دون تردد لمهارته العظيمة في الصيد ؛ ومن سوء حظي لم أوفق لأن أقدمه لك حياً . وبعد هذا الحديث رأى أن يقنعها بأن أحضر الرأس والريش والمخلبين

دهشت مدام جان ولامته لوماً شديداً لذبحه صقراً ثميناً ولكنها ارتاحت لهذا المثال العظيم فى الكرم الحاتمى الذى لم يؤثر فيه الفقر والبؤس وقالت له : « إننى لا أنسى مدي حياتى هذه التضحية مهما كان تصرف العناية الآلهية فى ولدى » . ثم استأذنت من فريديريك وانصرفت شاكرة له شرفه وحسن نواياه ، وذهبت إلى ابنها حيري حزينة لا تدرى بماذا تجيبه ، وقد اشتدت وطأة المرض عليه ومات بعد بضعة أيام وهى لا تدرى إن كان الموت نشأ من شدة حزنه على البازى أو كان المرض بطبيعته قاتلاً

وقد آلمها مرض ابنها ووفاته وطفقت تبكيه عدة أيام . ثم توسل إليها إخوتها أن تتزوج لأنها فتية وغنية جداً . لم تجد عندها رغبة فى الزواج ، ولكن أقاربها وأصدقاءها طفقوا يلحون عليها ويحثونها ، فعاودتها الذكري وفكرت في مكارم أخلاق فريديريك من شرف وثبات وكرم وكيف قدم لها صقراً ثميناً للغداء . ثم قالت لأقاربها : إنى أستطيع أن أبقى أيما سعيدة إن كان هذا يرضيكم ، ولكن احتراماً لرغبتكم لا أقبل زوجاً غير فريديريك البيريني . فصاح إخوتها بلهجة التهكم . « هل أنت جادة فى قولك ؟ إننا لا نستطيع أن نتصور ذلك . هل تجهلين أن هذا النبيل أصبح فى فقر مدقع ؟ »

— إننى أعلم ذلك ولكنى أفضل رجلا محتاجاً إلى المال على ثروة محتاجة إلى رجل . ولما رأي إخوتها أنها مصممة ألا تتزوج غير فريديريك وأنهم لا يستطيعون أن يغالطوا أنفسهم أنه شريف

كيس صادقوا على زواجهما ، ولقد أقاموا عرساً في منتهى الفخامة

لقد صير الؤس الزوج الحديد حكيما بصيراً بعواقب الأمور فأصبح مقتصداً يدبر شؤون الثروة الحديثة بحكمة وفطنة وعاش مع زوجته التى أحبها عيشة سعيدة هنيئة متمتعاً بعطفها وحنانها

محمد كامل صبحاج

إن أردت أن تحترف مهنة التنويم المغناطيسى وتصبح منوماً بارعاً

وتؤثر بالمغناطيس عن قرب وعن بعد وتحصل على دبلوم فى هذا الفن

(٢) تستبدل مرضك بصحة ، وبؤسك بسعادة ، وفشلك بنجاح (٣) وتستغل مواهبك وتستخدم قواك المغناطيسية لتذلل عقبات الحياة وتسيطر بها على الطبيعة وتؤثر بها على من حولك فى حالة البيع والشراء والخطابة وتصبح ذا شخصية بارزة وتحقق كل أمل تنشده (٤) إن أردت التخلص من العادات الضارة كشرب الدخان والادمان على المخدرات ولعب الميسر والنورستانيا والهستريا (٥) ومعالجة أمراضك العقلية والاضطرابات النفسية والعصبية . (الخوف . الوهم . الكآبة . الوسواس . الأرق . التلعثم (اللجلجة) . الإمساك المزمن . النحافة . السمنة ضعف الذاكرة والإرادة) (٦) أو إن كنت محامياً أو خطيباً أو ممثلاً أو بائعاً وتريد أن تكون موضع ثقة ويخرج كلامك مشبعاً بالتيار المغناطيسى ، أو أردت معرفة مستقبل أمورك (٧) وإن كان لك حاجة عند شخص تريد التأثير عليه عن بعد فاستخدم قواك الخفية التى سندربك على استعمالها واكتب إلينا حالاً فنرسل لك تعليماتنا مجاناً بالبريد . فقط ارفق ١٥ مليما طوابع بوستة للمصاريف واطلبها من الأستاذ ألفريد توما مدير معهد الشرق لعلم النفس ٣٢ شارع الملك بحدائق القبة بمصر

الضابط النبيل الدكتور أحمد سليم عيسى الحائز على دبلوم معهد الشرق بدرجاتها العليا : الشرف الثقة والكفاءة ، وقد تخصص فى الفنون المغناطيسية واستحضار الارواح ومعالجة الامراض النفسية فنهنئه ونتمنى له النجاح

أمنيـــة

أقصوصة مصرية

للأديب عبد الحميد جودة السحار

تناول نجيب صحيفة الصباح وأخذ يتصفحها ، وكلما قابل مقالة قرأ عنوانها وتفرس فى اسم مؤلفها حتى انتهى من تقليب جميع صفحاتها ، ثم أخذ يستعرض الصور التى تزين الصفحتين الأولى والأخيرة ، وطوى الصحيفة ووضعها على ركبتيه وراح يفكر فى أصحاب تلك المقالات والصور ... « أليسوا بشراً مثله ؟ ولكن لم يتمتعون بتلك الشهرة العريضة على حين لا يسمع به أحد ؟ ولم لا يعمل على نشر صورته ، أو على كتابة اسمه بحروف الطباعة على الأقل ؟ » ثم أغمض جفنيه وراح يحلم ؛ فرأى صورته تحتل الصفحة الأولى من إحدى الصحف فشعر بنشوة وهزة ... واستغرق فى أحلامه فرأي الأعمدة الطوال تكتب من أجله ... نعم من أجله هو ... ولكن فى أى موضوع يا ترى ؟ إنه لا يدرى ... ولماذا يتعب نفسه فى ذلك ؟ ها هى ذى صورته ، وهذه أعمدة الصحف تفيض بذكره وكفى ...

نادى نجيب بائع الصحف واشترى منه مجلة أسبوعية وقع فيها بصره على صور بعض الفائزين فى إحدى المسابقات فراح يتأملها فى حسرة وهو يردد : « يا لحسن حظهم ! يا لحسن حظهم ! » ثم تابع القراءة ، فعثر على مسابقة جديدة وعد فيها المحرر بنشر صور الفائزين ، فأسرع نجيب فحل المسابقة واستخرج من جيبه صورة حديثة له فوضعها مع الحل فى غلاف ، بعد أن استوعب شروط المسابقة عشرات المرات ، لئلا ينسى شرطاً قد يفسد عليه الفرصة الواتية .. ثم أخذ يحصى الأيام ، ويترقب صدور المجلة على أحر من الجمر ... وقبل اليوم المشهود بأيام أوصى بائع الصحف باحضار نسخة له

نادى بائع الصحف نجيباً ، فنزل مسرعاً بقلب يخفق ، وتسلم المجلة وراح يقلب صفحاتها بلهفة ظاهرة ، حتى وقعت عينه على صور أشخاص ، ولكنه شعر بضيق شديد وألقى بالمجلة حانقاً وهو يقول :

« إذا كان نشر صورتى صعباً فلا أظن كتابة اسمى تحت مقال بهذه الصعوبة » ثم تناول قلماً وورقاً وراح يقدح زناد فكره ، فلم يسعفه فكره ، فتناول صحيفة يستمد منها العون ، فوقع بصره على عنوان « حكم وأمثال » فقال فى نفسه : « لم لا أجمع حكما وأمثالا أضع تحتها اسمى كما فعل صاحبنا ؟ » وبعد لأى وفق إلى جمع مئتين اثنين وحكمة واحدة ، أضاف إليهما من عنده : « الصبر مفتاح الفرج » وأرسل كل ذلك إلى إدارة تلك الصحيفة

وشاء ربك أن تظهر الحكم والأمثال مذيلة بامضاء « نجيب » فطار فرحاً وابتاع عدة نسخ صار يوزعها على الأقارب والأصدقاء ، وأسرع إلى مكتب البريد وأرسل إلى أخيه الموظف بواد مدني نسخة ، بعد أن وضع حول حكمه إطاراً وسوّد كل ما عداها ... لو كان محرر تلك الصحيفة يعلم

هوى صاحبنا لنشر له كل يوم حكمة ، فيضمن رواج صحيفته بفضل ما يقوم به نجيب أفندى من الدعاية والتوزيع

ومن ثم استمر نجيب يرسل المقالات إلى جميع الصحف والمجلات ، ولكن بدون جدوى ؛ فيئس من هذه الطريق وراح يفكر فى طرق أخرى ، كأن يترقب وفاة أحد أقربائه فيظهر اسمه فى إعلان الوفاة بين أسرة الفقيد العزيز ... ولكن الموت بعد عن الأقارب ومد الله فى أعمارهم نكاية به ! فكر نجيب طويلا ، فهداه تفكيره إلى تناول مادة سامة ، وبذلك يضمن ذكر اسمه فى حوادث اليوم ، فاشترى (حامض الفنيك) وخففه بالماء ، وتناول جزءاً يسيراً منه فسقط يتلوى ويصرخ . وأسرع الحلاق المجاور لمنزله فيمن أسرع وتمكن من إسعافه دون إخبار رجال الإسعاف ، زعماً منه أنه بذلك يؤدى خدمة إلى نجيب افندى . فلما أفاق نجيب أوسع الحلاق سباً وشتما وقال له : « أنت مزين حقاً ، تتدخل فيما لا يعنيك ! » . ومنذ يومئذ يكره هذا الحلاق الثقيل الذى فوت عليه فرصة ذهبية !

وحدث أن سافر إلى الاسكندرية ، وجلس على الشاطئ فى يوم هاج فيه البحر ورفعت الراية السوداء ، وأخذ يتأمل الأمواج المتلاطمة وهى تتكسر على الشاطئ ، ثم رفع رأسه فرأى فتاة طائشة استخفت بالموت ونزلت إلى البحر وراحت تسبح بغرور إلى بعيد ، وفجأة علا صراخها تطلب الغوث ... ها هي الفرصة تسنح ... هيا أيها البطل واغتنمها ... ولكنه وا أسفا لا يعرف السباحة . وقف على الشاطئ والأسى يعصر قلبه ... لا على الفتاة المسكينة ، بل على الفرصة السانحة التى لم يهيئ نفسه لاستغلالها . أسرع عامل الإنقاذ وعاد بها إلى الشاطئ ؛ وكان أحد مصورى المجلات يتجول هناك فأراد أن يلتقط صورة للعامل فجاء نجيب يتمسح حتى وقف إلى جواره وهو يردد فى نفسه : « شىء خير من لا شىء » ؛ وواظب نجيب على شراء كل المجلات ولكن الصورة لم تظهر

وبينما هو يتصفح إحدى المجلات قرأ : «أهدى الوجيه إبراهيم ... إلى الراقصة جميلة ... قرطاً من الماس ... » فتعجب فى نفسه : كيف لم يهتد إلى ذلك قبل الآن ؟ إن التعرف إلى راقصة وإغراقها بالهدايا يجعل المجلات تردد اسمه . ألم تذكر المجلات اسم إبراهيم ... لأنه أهدى إلى راقصة قرطاً من الماس ؟ فما بالك لو أهدى إليها أقراطاً وأساور وغيرها ... ؟ نعم سيهدى إلى جميلة الهدايا التى ستذكرها المجلات كما ستذكر اسم الوجيه نجيب ومنافسته لإبراهيم

تودد نجيب إلى الراقصة ، فتوطدت العلائق بينهما ، وصارا يظهران فى شارع عماد الدين معاً ، ويقضيان الليالى فى الحانات ودور اللهو . وتطورت العلاقة على الأيام وأحب نجيب جميلة حباً جارفاً ، وراح ينفق عليها ببذخ ، فتدهورت حاله ولم يعد يستطيع مواصلة الانفاق ، فأصبح كلما ذهب لزيارتها أعلمت خادمها بغيابها ، وكلما لقيها ازورت عنه . إلى أن لقيها ذات ليلة بعد انتهاء الرقص فأخذ يبثها غرامه ، فسخرت منه ، فثار وهدد ، لكنها لم تأبه له وابتعدت ساخرة

أظلمت الدنيا فى عينيه ، وشعر بالدم يفور فى عروقه ، فاستل مدية وجرى خلفها وطعنها طعنة أعقبتها صرخة شقت الفضاء وسقطت مضرجة بدمائها

وأقفل وراءه باب السجن ، ورأى نفسه وحيداً فى الظلام ، فأخفى وجهه بين راحتيه ، وأخذت

الصور تتتابع فى مخيلته مراعاً ، فكان يرى أطوار حياته يتلو بعضها بعضاً إلى أن رأى جنايته وكيف أقدم على ارتكابها ، فتقلصت عضلات وجهه ، ثم فكر فى الغد المظلم ، وما يخبئه له من عذاب ، فتململ ، وفجأة تذكر الصحف ... نعم ، ستكتب الصحف عنه ... !

والتمعت فى عينيه ابتسامة ... وأسفا ! لقد دفع الثمن غالياً ، ولكنه ظفر فى النهاية . ستنشر الصحف صورته بلا ريب ، وستتحدث عنه كثيراً وتنشر المقالات الضافية ، ولكنه دفع الثمن حريته وحياته ... !

عبد الحميد جودة السحار

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

النموذج

تأليف

محمد جلال

رئيس قلم الترجمة بوزارة الزراعة

خريج مدرسة المعلمين العليا ومدرسة الفنون الملكية

يجد فيه الآباء والأمهات وسائل تكوين الأخلاق وتقويمها وطرق التربية الوطنية الاستقلالية والأخلاق والإرادة

ويجد فيه الأدباء الصراع بين القديم والحديث (مسرحية) وفلسفة الضحك ومثيرات الضحك والانفعالات النفسية ودراسات أدبية خاصة بالمتنبي ونرثار دشو

ويجد فيه الساسة فن الإمارة

يجب على كل من يريد تربية أولاده تربية صحيحة أن يقرأ هذا "النموذج"

الثمن خمسة وعشرون قرشاً صاغاً على ورق أبيض

وأربعون قرشاً صاغاً على ورق كوشيه

يباع بمكتبة النهضة ومكتبة الانجلو المصرية ومكتبة زيدان ومكتبة مصر

الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الكاتب

أبى العلاء المعرى

طرفة من روائع الأدب العربى فى طريقته ، وفى أسلوبه ، وفى معانيه . وهو الذى قال فيه ناقدو أبى العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة فى القاهرة وصدر منذ أسبوع

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتى

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة ويباع فى جميع المكاتب الشهيرة

أحسن القصص التركية

شجار أطفال

للكاتب التركي الكبير رشاد نوري

بقلم السيد خلف شوقي الداودي

— إذن ستعودين في قطار المساء ! مع أنى كنت أتوقع أن تبقى عندنا يومين أو ثلاثة . وكم كنت مسرورة لذلك ! فاذا بك مسافرة هكذا على عجل

— معاذ الله ! أنا أبقى هنا ؟ ولو بقيت لا سمح الله فلا بد لى من أحد أمرين إما الموت وإما الجنون

— وما ذا أقول أنا ؟ ألست ذات روح ؟

— لا ، ولكنك لا تملكين عقلاً تدركين به ! وإلا فكيف تستطيع الواحدة صبراً على هذه الحياة الموحشة واستانبول على مقربة منها ؟ وأين تلك الملاهى والمراقص ودور السنما والحدائق الغناء من هذه الحياة المقفرة فى ذرى الجبال وبين أكوام الثلوج وبطون الوديان ؟

— لا تقولى هذا يا عزيزتى (فرخندة) ! ولا تكثرى اللوم ! فأنا لست قانعة بهذه الحياة المملة ولا راضية عنها ، ولكن ما العمل و « الحاجة » هى التى تحملنى على ذلك ؟

— كلام فارغ ... متى ضاقت مدينة « فروق » الكبيرة بك وبزوجك حتى تضطرا إلى السكنى فى هذه البقاع البعيدة والصقع الموحش !

— دعك من هذا المزاح يافرخندة إنك تتجاهلين حالنا ! وإلا فانك تهرفين بما لا تعرفين ! إنك لا تعرفين الحاجة بل الفقر المدقع ، وإذا كنت تجهلين حالنا فاعلمى أنه على أثر خروج زوجى من وظيفته جعل الدائنون يطالبون بمالهم علينا يريدونه دفعة واحدة ... فأصبحنا بين عشية وضحاها عاجزين عن دفع كراء الدار التى نسكنها

— أنا لا أجهل ذلك . لقد أخطأت فى زواجك من هذا الكهل المتقاعد . لا أدرى أية ميزة له أطمعتك فيه ؟ أجماله أم ماله ؟ أحسبه أم نسبه ! أمركزه أم وظيفته ؟ إنه ليس سوى كهل متقاعد قارب العقد الخامس من العمر . فلا مال ولا جمال ! وعدا هذا لديه ابنة من زوجه الأولى المتوفاة .

— أسكتى بالله عليك . . فأنا أيضاً لست صغيرة ! ولدى من زوجى الأول بنتان لا واحدة

— أنت لم تبلغى خمسة وعشرين عاماً بعد وأنت جميلة كالوردة ! ولو لم يتزوجك هذا الرجل لكان هنالك العشرات ممن هم خير منه يتقدمون إليك لترضى بأحدهم بعلا ويكرمون ابنتيك من أجلك ! وهذا السأم الذى تشعرين به بل هذه الحسرة التى استولت على حواسك إنما هى من نتائج رعونتك ! وعند ما ننصت نحن إلى نغمات الموسيقى وأنغام الجاز بند فى ملاهى استانبول تنصتين أنت إلى طنين الذباب فى النهار وعواء الكلاب فى الليل

* * *

(١) نقلا من مجموعة (أحسن القصص التركية) لعام ١٩٢٧ نشرت لأول مرة فى مجلة « الهلال المصور الرسمى آى » التركية التى تصدر فى الآستانة

كانت هذه المحاورة تدور بين أختين فى الرضاعة وقريبتين من بعيد ، قضتا أعوام طفولتهما باللعب معاً، وبعدها دخلتا مدرسة واحدة . ولما أصبحتا على أبواب الزواج تقدم « معلم عود » إلى فرخندة فتزوجها بحب ، وها هى ذى سعيدة بزواجها تقضى أوقات فارغها فى مشاهدة الروايات السينمائية والمراقص وتحيا حياة عصرية

أما ناجية هانم فلم تكن ذات حظ سعيد كأختها إذ أنها تزوجت من ميكانيكى ظهر أنه غير كفؤ لها، وأنه مقامر سكير ، وبعد أن قضت معه ثلاثة أعوام بالشجار والجدال طلقها وفر هارباً مع احدى الراقصات إلى سورية : ولقد أثرت هذه المصيبة تأثيراً سيئاً وكبيراً فى ناجية هانم ولقنتها دروساً فى الحياة كان من أثرها أنها لم تبال بما كان يتظاهر لها به أحد شباب الجيران من حب، وبما كان يحاول به لفت نظرها من غناء وضرب على العود ! وفضلت الزواج من كمال يدعى على رضا عضو محكمة على الشاب المدله بحبها ...

أما هذا البيت « المقفر » « الموحش » كما وصفته السيدة فرخنده فلم يكن سوى بيت ربفى واقع فى حديقة كبيرة وفى معزل عن البلدة اضطر على رضا إلى سكناه على أثر إحالته إلى التقاعد لأسباب اقتصادية وجعل يقضى أوقاته فى حرث الأرض وزرعها .

وبينما كانت الأختان تتجاذبان أطراف الحديث كان الأطفال يلهون ويلعبون فى أقصى الحديقة وصراخهم يكاد يصم الآذان ، وهم فرحون جذلون على ما يظهر من أصواتهم وألفاظهم . ولكن سرعان ما تبدلت أفراحهم أتراحاً وانقلب سرورهم إلى شجار ... ولو استرق السمع أحد لسمع صوتاً رقيقاً يدل على أن صاحبه يجهش بالبكاء .. ولقد أثار هذا الصوت غضب السيدة ناجية وأثار أعصابها ، وكانت قد حركتها ذكرى السينما والملاهى والمسارح والمراقص فى الآستانة ، فقامت من مكانها مقطبة الجبين والحاجبين وهي تقول :

« الحق أننى أهضم كل شيء هنا ، وليس لدى ما أشكو منه ، ولا يضيرنى الفقر كما أنى لا أشكو من كبر سن زوجى ، ولكن الذى لا أستطيع الصبر عليه هو هذه الفتاة « باكيزة » ابنة زوجى .. إنها سترمى بأولادى السل بما تسببه لهم من هم وغم .. من يدرى ماذا صنعت بهم حتى حملتهم على الصراخ »

لم تكن باكيزة غير طفلة فى العام الثامن من أعوام حياتها .. لقد كانت جدتها تكفلها إلى ماقبل ستة أشهر ، لكن العجوز المسكينة توفيت بذات الرئة فاضطر أبوها إلى أخذها عنده ..

لم ينقطع صوت بكاء الطفلة فلم تستطع ناجية هانم الصبر فقامت غاضبة إلى شجرة جوز كبير حيث اتخذ الأطفال من ساقيها أرجوحة يلعبون بها ويقضون فيها أوقاتهم . وكانوا مجتمعين تحت ظل الشجرة الوارف .. لقد كانوا أربعة أو خمسة أطفال بينهم فتاة فى السادسة من عمرها تبكى من دونهم ، وكان التراب الذى يعلو وجهها يختلط بدموعها وينحدر على خديها تاركاً آثاراً تشبه السواقى الصغيرة .

ما الذى صنعته بالأولاد أيتها الحية الرقطاء ؟!

هكذا قالت السيدة ناجية هانم تخاطب ابنة زوجها قبل أن تتحقق من منهم المعتدى ؛ مما يدل على رسوخ الاعتقاد فى نحيلتها بذنب الفتاة إن صدقاً وإن كذباً .. قالت لها ذلك وهى واقفة أمامها ويداها فى خاصرتها محدقة فيها النظر تريد منها جواباً ! أما باكيزة فلم تجب بغير رفع حاجبيها بامتعاض نافية صدور ذنب منها ! ولقد حمل هذا الطفلة (آفسر) على التعلق بأذيال أمها والتشكى لها من باكيزة واتهامها بعدم هزها فى الأرجوحة :

« أماه احملى هذه الصبية المنحوسة على أن تهزنى فى الأرجوحة » قالت ذلك وأجهشت بالبكاء المصطنع ..

— هزى أختك قليلا ياهذه ! . ما الذى يضرك ؟ .

— ... ...

— الظاهر أن ذلك يمس كبرياء الهانم ! ؟

— ... ...

— ولكنك تعرفين ارتداء الملابس التى أصنعها لك بإذابة نور عينى وتعرفين أكل الأطعمة التى أقضى الساعات الطوال فى إعدادها لك ؟ !

— ... ...

لم تكن السيدة ناجية هانم تقول ذلك بلهجة أم تؤنب ابنتها ، بل بلهجة عدو منتقم يصدر أوامره الى عدو من أعدائه الألداء أوقعه سوء طالعه تحت أمره .

كان وجه السيدة ناجية يحاكى وجوه الأمهات باصفراره عند ما مدت يدها الى طفلتها وحملتها لتجلسها على الأرجوحة .. ولما أتمت ذلك أمسكت بطرف الحبل وأدنته من ابنة زوجها اليتيمة وصاحت بها تأمرها أن تهز الطفلة أختها . .

أدركت باكيزة أنها ستنال ضرباً مبرحاً من زوجة أبيها إن لم تهز أختها ، فأطاعت مكرهة ومدت يدها بحركة آلية الى الحبل فأخذته من يدها وشرعت تجره وتهز الأرجوحة والدموع تترقرق فى مآقيها . وكاد الأمر يقف عند هذا الحد لولا حادث بسيط . فقد وقعت الطفلة « أفسر » من على الأرجوحة وبان على شفتيها أثر دم ! . ومع أن الوقعة كانت قضاء وقدراً الا أن ناجية هانم إعتقدت كل الاعتقاد أن ذلك لم يكن إلا إنتقاماً وتشفياً من باكيزة .. فقامت القيامة وفار التنور ... وأخذت تولول وتثور وتهددها بعظائم الأمور .

***

عاد على رضا بك بعد الحادث بقليل إلى داره وكان أول ما بادرته به زوجه الشكوى من ابنته . فقال لها :

« رويدك ! لا تهتمى كثيراً فانا أعرف أن جدتها ربتها تربية سيئة وأنها الآن بحاجة الى من يربيها تربية صحيحة » قال ذلك وصاح بابنته بصوت أجش .. فجاءته خائفة وجلست وهى تعلم ما يضمره لها أبوها . فأمسكها من يدها كما يمسك الشرطى بيد المجرم وذهب بها الى شجرة الجوز الكبيرة وأوقفها أمامه يحاكمها كما يحاكم المجرمون . . . جلس على رضا قبالة ابنته باكيزة .. وجعل يمثل الدور الذى كان يقوم به لما كان عضواً فى المحكمة وشرع يحقق مع باكيزة بتلك الروح : روح « المستنطق » القديم . أجل إنه كان كحاكم حقيقى فى هذه الساعة .. أمامه « متهمة » وهنالك مدع . أما « التهمة » الموجهة اليها فتنحصر فى :

« تعمدها إسقاط أختها الصغيرة من الأرجوحة وتسببها فى جرح شفتيها » وأخيراً صاح بالمتهمة الصغيرة بصوت خشن يقول :

— أتعجبك هذه الأعمال ؟

— ... ...

— لقد أصبحت فتاة مراهقة وفى الثامنة من عمرك فهلا استحييت قليلاً ؟ وهل تعامل الأخت أختها هذه المعاملة ؟

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لهان ، ولكن لم يمر أسبوع من الأشهر الستة التى حللت فيها عندنا دون شكوى أمك منك ... رحم الله جدتك ... يظهر أنها كانت تاركة لك الحبل على الغارب ولم تردعك عن هذه الوقاحات وأمثالها ... والآن لنترك ما مضى إلى ما مضى ... وهيا عديني بأنك سوف لا تعيدين سيرتك الأولى وستكونين ساكنة هادئة راضية مرضية مطيعة أوامر أمك تفعلين ما تؤمرين

لم تجب باكيزة أباها . وكل ما فعلته أنها رفعت حاجبيها الكثيفين ونكست رأسها إلى الأرض بذل وانكسار شأن اليتامى . أما وجهها فقد كان يصعب تبين اللون الذى كساه لظلمة المساء التى سادت

لقد فسر على رضا بك الوالد هذا السكوت بالعصيان ... فزاد ذلك فى حنق الحاكم القديم وحدته فما كان منه إلا أن مد يده إلى الفتاة وأمسكها من كتفها الأيسر وهزها هزاً عنيفاً وصاح بها والغيظ آخذ منه مأخذه :

— إنى أكلمك يا شريرة ، فلم لا تجيبيننى ؟ وهل أصبحت صماء بكماء !

عند ذلك رفعت باكيزة رأسها وعيناها ممتلئتان بالدموع وقالت :

« إنى لم أعص أمى أبداً فلقد كنت أعمل كل ما تأمرنى به ، وفوق هذا ألاحظ إخوتى وأخواتى كأحد الخدم ... وإننى لم أقم بأية حركة تدعو إلى الشكوى ؛ ولكن مع هذا كله لا ترضى عنى ولا أدرى ما الذى أعمله حتى أجلب رضاها ... ؟ »

قالت باكيزة ذلك وهى ترفع يديها نحو أبيها مسترحمة سائلة أن يدلها على طريقة لإرضاء زوجه والدموع تسيل على خديها ... « إنهم يعتدون على ويضربوننى أشد الضرب ... ولكنى لم أشتكهم إليك ، وسوف لا أشتكى لأنى أعلم أنك لن تصغى إلى شكواى ! » وأردفت قولها هذا بالكشف عن ذراعيها وصدرها ورقبتها وطلبت من أبيها أن ينظر إلى آثار العصى والضرب المبرح الذى كانت تتلقاه من أخواتها وأمهن . وشكت إلى أبيها ما تقاسيه من ظلم أخواتها اللواتى أصبحن ألد أعدائها مقلدات أمهن ! وكيف أنهن يعاملنها معاملة ظالمة : « إنهن منعننى من الجلوس فى الأرجوحة ... لا لسبب سوى أننى أهز نفسى فى الهواء عالياً أكثر منهن ! لقد أبحن الجلوس فى الأرجوحة لجميع بنات المحلة إلا إياى ... زيادة فى التكاية بى ! . وكلما حاولت التقرب من الأرجوحة يهاجمننى بالعصى والحجارة والسب والشتم ... وفوق كل هذا يأمرننى بهز البنات الغريبات ، والويل لى إن رفضت لهن أمراً ! هذا قليل مما أقاسيه من الأطفال وأمهن كل يوم ... لقد كنت أتلقى كل هذه المعاملات وأنا

صابرة ولم أنبس ببنت شفة لئلا أسبب لك آلاماً بل كنت أكتمها عنك ... ولكن يظهر أن كل هذا لم يرد لهم غليلاً فأرادوا أن يزيدوا فى الإيقاع والتنكيل بى فوشوا بى إليك ... »

كان على رضا بك ينصت إلى ابنته باكيزة وهو يكاد يتميز من الغيظ من هول ما يسمع ... ولقد لام نفسه لوماً شديداً لعدم انصاله بفتاته باكيزة كل هذه المدة ... رفع بصره إليها فخيل إليه أنه لا يرى طفلة فى الثامنة من عمرها ، وإنما يرى سيدة رزينة عاقلة ، ورأى عينيها السوداوين تفيضان بالدموع كما يفيض الينبوع بالماء . لقد رأي من بين أهدابها الطويلة المبللة بالدموع صورة أمها المرحومة تبتسم وهى ترنو إليه بعينيها الجميلتين

كيف ذهبت عن باله باكيزة ؟ ... كيف قصر فى السؤال عنها والدفاع عن حقوقها وهو الذي سلخ ثلاثين عاماً من حياته فى الدفاع عن المظلوم وإحقاق الحق وردع المعتدين ؟ وكيف يجوز لرجل كعلى رضا بك أن ينغض الطرف عن هذه الاعتداءات التى وقعت على ابنته ؟ !

لقد انتبه ضمير الحاكم السابق ، وامتزج بالحنان الأبوى الذى لا يصبر على حيف يلحق بثمرة فؤاده . فنظر إلى ابنته وهو يحاول أن يخفف من التأثير الكبير الذى استولى عليه وراح يدمدم ويكرر ما قالته له قبل لحظة :

« وسوف لا أشتكى لك لأني أعلم أنك لن تصغي إلى شكواى ! »

إن هذا ليس بصحيح يا بنيتى . من قال إن الآباء لا يستمعون إلى شكوى أبنائهم ؟ إن هذا هراء ! !

ضحكت الطفلة عند ما رأت أباها يتأثر لمصابها . وقالت : كانت جدتى المرحومة تقول لى دائماً :

« تعتبر إحدى عينى الأب عمياء فى حياة الأم ، أما بعد وفاتها فيصبح أعمى ولو كان بصيراً .. »

وأما سبب عدم بث شكواى إليك يا أبت فهو أننى لم أشأ أن أسبب لك آلاماً . وهب أنى فاتحتك بكل هذه الاعتداءات فماذا تستطيع أن تصنع ؟ ..

كان على رضا محنياً رأسه إلى الأمام ينظر إلى الأرض غارقاً فى بحر عميق من التفكر ... لقد تصور حياته التى يحياها مع زوجه الثانية ، وكيف كان ضعيفاً أمامها ضعفاً لا يكون إلا من الذين قد تجاوزوا سن الكهولة ، ضعفاً هو أقرب إلى الذل منه إلى الضعف ، وكأن باكيزة الطفلة قد أدركت هذا الضعف فى أبيها عندما قالت :

«وأنت ماذا تستطيع أن تصنع ؟» ولكن لا ، إن هذا الموظف العدلى القديم لا يشبه غيره من الرجال ... وليس من الذين يقبلون أن يحيوا فى ذل وخنوع واستكانة وعبودية ، فقرر لساعته أن ينفض عنه غبار الذل . والتفت إلى ابنته وقال لها وفى نبرات صوته حزم ظاهر :

— اسمعى يا بنيتى ! إننى أنا أبوك ، فلا تيأسى ولا تخافى ولا تحزنى ! لن يعتدى عليك أحد بعد اليوم . قال ذلك ومد يده إلى الطفلة ورفعها فى الهواء يلاطفها ، ومن ثم أدناها من فمه يقبلها وهو يتفرس فى عينيها يتخيل فيهما صورة زوجه ويطلب منها العفو على ما فرط منه فى جنب ابنتها باكيزة

* * *

لقد انقلب على رضا بك فى ثوان معدودات إلى

شخص آخر فلقد تبدلت معاملته لزوجته وتغير حاله مع ابنته باكيزه . طلب من جميع من فى البيت أن تعامل باكيزه معاملة ممتازة كما لو كانت أميرة صغيرة . لقد جعل يسأل ابنته مساء كل يوم عند عودته إلى البيت عما إذا كان قد اعتدى عليها أحد فى غيابه . لقد كان يريد أن يقف منها على كل صغيرة وكبيرة تخصها ... وعند ما يبلغ مسامعه وقوع اعتداء عليها أو أن أحداً تطاول عليها باللسان تقوم قيامته وينهال على زوجه وبناتها لوماً وتأنيباً وضرباً إذا اقتضى الأمر

لكن هذا الحال لم يدم طويلا فلقد ضاقت ناجية هانم بهذه الحياة ذرعاً ولم يبق فى قوس صبرها منزع فتصادمت مع زوجها وتشاجرا وتقاذفا بأنواع السب والشتم ! ومرة بلغ الجدال بينهما حداً لم تطق معه صبراً فأغمى عليها من شدة التأثر وأخيراً قرّرا الفراق بالطلاق

* * *

كانت آخر ليلة من ليالى ناجية هانم فى البيت ، فهذا الأثاث مرفوع وهذه الملابس قد حفظت فى الصناديق ، ويسود البيت سكون يشبه سكون المقابر

كلاهما مصران على الفراق .. فالسيدة ناجية قد قررت مغادرة البيت مع طفليها إلى « استامبول » وكانت ملامحها لا تدل على رغبتها فى هذا الفراق ، أما على رضا بك فكان وجهه أشد اصفراراً من وجوه الموتى .. وعيناه غائرتين فى المحاجر .. ها هو ذا يقطع الحديقة ذهاباً وإياباً لا يستقر على حال من القلق .. فهو لم يدخل غرفة نومه إلى قبيل الفجر . ولقد حمله فرط يأسه على الاضطجاع على الأريكة وقضاء ليله عليها بدلا من السرير

وهذه باكيزة قد انكمشت فى جلدها — كمن ارتكب ذنباً يخاف العقاب عليه — وقبعت فى مكانها خائفة وجلة غير جاهلة بأنها سبب كل هذه « الزوبعة » التى ثارت فى البيت فهدمت أركانه ...

لم يغمض لها جفن طول الليل . ولما انبلج الفجر بنوره ولاح ، نزلت إلى الطابق الأول ومرّت فى طريقها بغرفة أبيها وكان لا يزال مضطجعاً على الأريكة غارقاً فى منامه . فنظرت إليه نظرة كلها حبّ وامتنان وتذكرت أنه قد قام بحقها وضحى براحته فى سبيلها ، وتذكرت أنها وإن كانت ابنته وأنه يحبها حباً جماً إلا أنه سوف يتأثر جداً لفراق امرأته .. وربما لا يتحمل آلام الفراق ...

لقد أراح النوم على رضا بك فذهب عنه الغضب فانبسط وجهه وكان المتأمل يرى فيه الاضطراب والألم الممض ...

وقفت باكيزة تفكر ... وبعد التفكير العميق قرّرت فى نفسها أن تعمل من أجل راحة أبيها فتختفى عن الأنظار حفظاً لأركان هذا البيت من الانهيار وإكراماً لأبيها ... فدخلت إلى الغرفة تمشى على أصابع رجليها حذراً من أن توقظ أباها ، فقبلت جبينه وغابت عن الأبصار ... ولم يقفوا لها على أثر حتى كان اليوم الثالث من اختفائها ... ففى ذلك اليوم ، وجدوا جثتها فى بئر مهجورة قرب قصر قديم ... لقد شاهدوا صخرة كبيرة مربوطة فى عنقها بثوبها ، واتضح لهم أنها تعمدت ربط هذه الصخرة بيدها خوفاً من أن يكون الماء ضحضاحاً فلا يكفى لقتلها ...

المسيب — «العراق» ع . شرقى الدارودى

من القصص العربي

مؤذن بغداد

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

حدّث عنه أحد الذين انتهى إليهم خبره قال :

لقد كان حميد السيرة ، واضح السريرة ، اسمه « صالح » وهو اسم وقع على معناه ، واتصل بسماه ، فما عهد الناس عليه إلا التقى والصلاح ، ولا عرفوا عنه إلا الورع والاخلاص ، وما رأوه إلا قائماً فى المحراب يدعو الله ، أو على سطح المسجد ينادى لله

كان يؤدى واجب الآذان فى مسجد بغداد العظيمة ، وكان ندى الصوت عذب النبرات ، حلو المقاطع قويها ، يخرج نَفَسه من نَفْسه ، وينبعث صوته من قلبه ، فكان طمأنينة للعابد ، ورهبة للجاحد ، وزجراً للمفرط . وأكثر ما كان يتضح فيه ذلك ويظهر إذا ما هب مع نسيم الفجر البليل والكون خاشع منصت ، حتى لقد كان يخشاه أولئكم الساهرون فى بغداد على الكأس والسامرون بانتهاب اللذات ، فاذا ما الليل ضربه ذنب السرحان نهضوا عن مجالسهم قبل أن يدركهم « صالح المؤذن » فيفزعهم « بندائه » لله ، على ما فرطوا فى جنب الله !

ولقد ساخ فى أداء مهمته أربعين عاماً كاملة ، فظل هو هو على ما عرفته مهمته من أول يوم وفاء وإخلاصاً ، ما ونى ولا أهمل ، ولا أخل بواجب المهنة وما يليق لها من مظاهر الجلال والورع ، وكأنى به ما كان يستطيع أن يحيد عن ذلك ، فقد استغرقت المهنة شعوره ، واستبدت بعواطفه ، وطبعته على غرارها فى ميوله ورغباته ، وصقلته على هواها فى سماته وتقاسيمه ، فكنت إذا ما اشتملته بنظرة ، ثبت فى قرارة نفسك أن هذا الرجل إنما يعيش عيش الصالحين ، وينهج نهج الزاهدين ، فكنت تقدر له نهاية شريفة ، وخاتمة حميدة ، وآخرة حافلة بالأجر والثواب

ولقد كان أهل بغداد يقدرون له هذه النهاية ، ولكن للقدر تقديراً هو النافذ ، وقد شاء الله أن تكون نهاية هذا الرجل الصالح نهاية الآثم الفاجر ، وخاتمته خاتمة المرتد الكافر ، فانه لفى يوم وقد ارتقى سطح المسجد ينادى على الصلاة الوسطى كعادته ، وكان قد سكن بجوار المسجد نصرانى هبط المدينة منذ أيام ، فلمح ابنة ذلك النصرانى على سطح المنزل وكأنها طلعة الصبح ، أو فلقة القمر ، فأخذته رقتها وفتنته خفتها ، فانتهى من أذانه وهو يتحدث بصنع الله الجميل ، ويلهج بذكر الحور العين . فلما صعد للأذان فى اليوم الثانى كان من حظه أن رآها كما رآها فى اليوم الأول ، وقد عمل فى قلبه أن رآها تهش لرؤيته ، وتبتسم لنظرته . ومضت أيام تكلمت فيها العيون وخفقت القلوب ، وتيقظت العواطف ، وأحس الرجل باحساس غريب يدخل على قلبه ، وشعر بطائف يجول بين جوانحه ، واعتراه مثل الذهول فكنت تراه حالم النظر ، سادر الفكر ، شارد اللب . حتى لقد انصرف باله عن المحراب وقل جهده فى الطاعة وصار كل وقته يقضيه على سطح

(١) لهذه القصة حقيقة فى كتب الأدب وقد توسعنا فى وضع حوارها على ما تخيلناه

المسجد يرقب طلعة صاحبته ، ولقد كان يؤدى واجب الأذان فما يدرى أأداه على التمام أم قصر ، وهل تحرى فيه الوقت أم تأخر ، فكان كما يقول القائل :

وأصلى فأغلط الدهر فيما بين سبع وأربع وثمان
ومواقيت جئتها لست أدرى
ما أذان موقت من أذان

وفى ليلة من الليالى ، انطلق الرجل على سجيته وانفلت مع طبعه ، واستكان لغريزته ، فتربص حتى سكنت نأمة الناس ، وأيقن بخلو المنزل إلا من فتاته فدلف إليها فى وناء واحتراس ، حتى وافاها موافاة المهجور للواحة الظليلة .. وقال الرجل فيما قال لفتاته : ها هو ذا جسمى قد انتقل إليك بعد أن عصفت بقلبى ، وسللت روحى ، وسلبتنى اللب والرشاد ، وما أحسبنى منتفعاً بنفسى إذا ما تحطم أملى عندك وخاب رجائى فيك . فيا مُنى النفس ، ويا ربيع القلب ، ويا مجال الهوى ، ويا مسلاة الكئيب ، ارحمى صباً قد تعذب فى هواك

واستيقنى أن قد كلفت بكم
ثم افعلى ما شئت عن علم

قالت الفتاة : أهكذا أنتم يا أهل الأمانات ! ! تخدعون الناس بظواهركم ومظاهركم ، وما أنتم من وراء هذه الظواهر والمظاهر إلا نفوساً مرتطمة بأوحال الرذيلة ، وأقذار الشر . لقد غششت الناس فى حقيقتك يا دعى الصلاح ! فحسبوك فى كثير من صفاء الروح ، وطهارة النفس ، ولو تكشف لهم باطنك لرأوا فيك أخا الشيطان ، ولعلموا أن ذلك الصوت الذى ينطلق باسم الله فيحضهم على البر ، ويهيب بهم إلى الطاعة ، ليس إلا صوت منافق ، أولى به أن يكون واعظ نفسه ، وزاجر قلبه ، فلا يجف إلى مضجع الفتاة الشريفة فى غير مبالاة ولا حرج ، كأنه قد أمن الرقيب ، واستخف بالحامى ، ونسى الله ...

قال الرجل : مهلاً يا فتاتى ، فما جئت إلا على وعدٍ من ناظريك ، وما أحسبنى أذنبت إذا كان قلبى قد سمع النداء قلبى ، وإنى لأحس أنك تبادلينى عاطفة بعاطفة ، وشعوراً بشعور . ولقد انطلق لسانك بنقيصتى وهى نقيصة لا أقبلها منك إقراراً لحق ، وإن كنت أرضاها إشباعاً لرغبة الدلال فيك ، فالدلال من شيم الحسان ، والدلال كما يقولون هو روح الحب به يحيا وبه يدوم ، وكل ما أرجو ألا يكون كلامك عن عقيدة ، فمعاذ الله أن أطلب فى حبك شهوة البدن ، أو رغبة الجسد ، ولكنى أطمع أن تصلى بين قلبى وقلبك ، وأن تمتزج روحى بروحك ، وأن تغمرينى بفيض رضاك وعطفك

نصيبك من قلبى كما قد عهدته
وما لى بحمد الله منك نصيب
وما أدعى إلا اكتفاء بنظرة
إليك ودعوى العاشقين ضروب

قالت الفتاة : كأنك قد فهمت خاطر نفسى ، فأنا ما أردت إلا اختبار هواك ، ولن يريبنى منك أكنت تكتفى بالنظرة ، أم كنت على مذهب « فتى قريش[1] » فى العبث والفتك ، فقديماً قال صاحبكم :

وقد زعمت ليلى بأنى فاجر
لنفسى تقاها أو عليها فجورها

ولكن قل لى بربك : كيف أستطيع أن أقرب بين قلبين باعدت بينهما العقيدة ، وأن أمزج روحين فرق بينهما الدين ، وكيف يمكن أن أبادلك ما تريد

(١) هو عمر بن أبى ربيعة

من عواطف الغرام ، وأنت تعلم أن الحب والعقيدة صنوان ينبتان فى جذر القلب ، ويستويان على الصدق والإخلاص ، فمن الواجب أن يكونا على غرار واحد من التوافق ، وفى لون واحد من الصفاء . وها أنا ذي بين يديك لك قلبي ، ولك روحى ، ولك جسمى ، ولك منى كل ما تريد فى الحب على شرط أن تكون لى على ما أرغب من العقيدة والإيمان ! !

قال : وما رغبتك فى عقيدتى وإيمانى

قالت : رغبتى أن يتحد قلبانا فى الحب والإيمان ، وأن يكون اتجاهنا نحو السماء اتجاهاً متفقاً فى الشكل والصورة ، حتى إذا ما دعونا الله ، دعوناه بصوت واحد ، وبلفظ واحد ، فهات يدك لنكون على هدى المسيح حبًّا وإيماناً ، وليبارك لنا حبنا وإيماننا ، وليشملنا برعايته وحياطته ! !

قال الرجل : عفا الله عنك أيتها الفاتنة ، ولا كان علىّ من إثم قولتك ، وأرجو ألا تكوني مصرة على رغبتك ، فأنها رغبة نابية ، وأنا ما أردت أن أعرف قلبي فى الحب لأنكره فى الدين ، ولا رغبت فى قربك لأبتعد عن الله إلى هذا الحد ، ولكنى هويتك على أن الدين لله ، والحب للقلوب . فحرام عليك أن تطمسى علىّ أربعين عاماً قضيتها قائماً فى نواشىء الأسحار أدعو الله ولله ، فإذا ما نظرت إليها فى أطواء الماضى تراءت لى كأربعين خريفاً من نور تمتد إلى مثلها فى ثنايا المستقبل ؛ وإن روحى لترف فى وسط هذا النور كالفراشة ساعدة هابطة ، فرحة جذلة ، وناهيك به من نور ربّانى يغمر الجوارح ، وينفذ إلى الجوانح ، ويخف بالإنسان إلى عالم كله الطمأنينة والراحة والخلود ، فلأكن أنا أنانى عقيدتى ، وكونى أنت فى إيمانك ، ولتكن سوياً فى الحب ، قلبى وقلبك يخفقان بالشعور المتوافق ، والإحساس المتبادل ، إحساس الحب النبيل ! !

قالت الفتاة : ما كنت أعلم يا صاحبى أنك من الإصرار على عقيدتك إلى هذا الحد ، فليتك فى مثل ذلك من الإخلاص للحب الذى تزعمه ، ولكن يخيل إلى أن لسانك يقول شيئاً وقلبك يطوى شيئاً . ولو كنت كما تزعم من الغرام بى لما أبيت رغبتى . وما دمت تزعم أن الدين لله ، والحب للقلوب ، فلا يسعنى إلا أن أكون كما تحب ، على أن تعرف لقلبك حقه من المتاع واللذة ، فهيا اتبعنى إلى النافذة التى تطل على دنيا الحب وعالم الغرام ، وليست هذه النافذة إلا كأساً من بنت الكرم ، أو إن شئت فقل من رحيق الحب ، تقبلها بشفتيك ، فإذا أنت فى دنيا من النشوة والأنس والسرور ، وإذا أنا لك بروحى وقلبى وجسمى ، فما الحب إلا للروح والقلب والجسم ... وما أداة ذلك إلا الصبوة تذكيها الكأس:

ما بيننا رحم إلا إدارتها
والراح حرمتها أولى من الرحم

قال : ويحك يا ماكرة ! لقد أردت لى ما هو أشنع وأفظع ، وجردت على سيفاً هو أمضى وأقطع ، كأنك تريدين أن يكون مثلى فى الناس كمثل ذلك الناسك الذى تحداه الشيطان بدخول صومعته ، فراهنه الناسك على أن يكون له منه ما يريد إذا استطاع ذلك . فلما كان بعد ذلك بأيام ظهر الشيطان قريباً من الصومعة فى صورة طائر مهيض الجناح ، يحاول أن يطلع فلا يقدر ، ويتحامل للنهوض فلا يستطيع ، فلما رآه الناسك انخلع قلبه شفقة عليه ،

فهم فاحتمله حتى إذا صار به إلى جوف الصومعة ، ظهر الشيطان فى صورته ، فعلم الناسك أنه غلب على أمره ولم يسعه إلا أن يجيب الشيطان إلى رهانه فخيره الشيطان بين الزنا أو القتل أو الخمر ، فقدر الناسك فى نفسه أن الخمر أخفها احتمالاً ، ورأى أنه إذا شربها فلا يضر إلا نفسه ، ولكنه لما شرب سكر ، ولما سكر عربد ، ولما عربد انطلق إلى قرية قريبة فأغوته امرأة بالزنا ففعل ، فصادفه زوجها فوكزه الناسك فقضى عليه ، ثم عاد وهو ينوء بأوزار الموبقات الثلاث : الخمر والزنا والقتل ، وكانت الخمر هى التى دفعت به إلى كل هذا ، وألقت على ظهره هذا الوزر الثقيل !

قالت الفتاة : كأنك تريد أن تدخل دنيا الحب وأنت بروح الناسك وقلب المتحنث وتزمت العابد ، فخير لك أن تعود إلى المأذنة والمحراب لا تربعهما إلى نور الدنيا ... ويعلم الله أنى ما مكرت بك يا صاح ولكنى طلبت لك أمنية المتمنى ورغبة الراغب : وكم قالوا : ثمن ! فقلت : كأس

يطوف بها قضيب من كثيب
وندمان تساقطنى حديثاً

كلحظ الحب أو غض الرقيب

قال الرجل : ماذا ؟ كلحظ الحب أو غض الرقيب ! لا ! والله إنك لأغض فى القلب والناظر ... وأمتع للنفس والخاطر ...

... وسمع صوت والدها يطرق الباب ، فنهضت الفتاة فزعة ، ونهض صاحبها مروعاً تقول : لقد ذاع السر ، ويقول : لقد انكشف الستر . وسرعان ما دفعت إلى السطح ليختفى ، وفتحت الباب لوالدها ليدخل ، وحسب المؤذن أنه لا بد مدرك من والد الفتاة ، فألقى بنفسه من سطح الدار يريد النجاة ، ولكنه صك الأرض صكة قوية كانت القاضية ...

وأصبح الناس من الغد وفيهم حديث المؤذن ذائع شائع ، على أنه قصد إلى ابنة النصرانى بالفاحشة فأبت عليه حتى يقول كلمة الكفر ويأكل لحم الخنزير ويشرب الخمر ، فكفر وأكل وشرب ، فلما دب فيه الشراب احتجزته فوق السطح حتى يحضر والدها فسقط فمات ! واحتشد الناس حول جثة الرجل فسحبوه على وجهه حتى انتهوا به إلى مزبلة كما يقول الرواة

محمد فريد عبد اللطيف

تصويب

أخطاء مطبعية فى قصة (ليلة الوداع) فى الرواية عدد ٣٠

الصفحة	العمود	السطر	الخطأ	الصواب
٢٩٤	٢	٢	شر الصواعق	شرى الصواعق
٢٩٥	٢	١٥	للخليفة	الخليفة
٢٩٦	١	٢٣	الرهيبة	الرهبة
٢٩٧	١	٩	التى	اللائى
٢٩٧	٢	٢٢	تبعث	تنبعث
٢٩٧	٢	٢٦	يخفق أبداً	يصفق أبداً
٢٩٩	٢	٢٦	أشرف	أشرق
٣٠٠	٢	٣	عفلت	غفلت
٣٠٠	٢	٢٤	بغية السيف	بقية السيف
٣٠١	١	٥	يضطجع فيها	يضجع فيه
٣٠٢	١	١٦	قرب	اقترب
٣٠٢	١	٢٨	من عند	عند
٣٠٣	١	٨	جبانها	صبيانها
٣٠٣	٢	١٤	صارع	ضارع

ماريوتو

للكاتب الإيطالي ماسوشيو سالفينا تو

للأستاذ دريني خشبه

أحبها ماريوتو ماجنانلى من أعماق قلبه ، وجعلها أغنية روحه ، ومزج غرامها بدمه ، وجعل اسمها الحبيب إنجيله المقدس الذى يردده ويهتف به فى يقظته وفى منامه ... ثم راح ينشدها في أنفاس الصباح ونسمات الأصيل ، ويتخيلها فى لألاء النجوم وصفحة البدر ... وكلما لقيها فوق سيف البحر أرسل عليها حبه وآلامه تتوسل له تحت قدميها الجميلتين وتطلب له الشفاعة .. حتى عرفت أنه يحبها

وآنست فيه الفتاة طهارة ونقاء وصدقاً فرقت له ومالت إليه ، وجزته على دموعه وحرقه بابتسامة بريئة ماد لها قلبه ، وازلزل من شدة أسرها كيانه ، وفتحت له أبواب السماء يطلع منها على عالم من الحب سرمدى ، لأنه من صنع اللطيف البارئ ... سبحانه !

وباركت قلبيهما يد الله ، وأخذا يلتقيان خفية ليتعاهدا على الحب وليرويا بدموعهما ، وليقطفا من ثمره إذا أينع ... قبلة أو قبلتين ... ثم ليأخذا فى حديث ألذ من قطع الروض ، وأبهى من وشيه يرف على شفاههما رفيف النسيم ، ويتدهدى من أعينهما الظامئة كأنه رقى السحر

وكان ماريوتو من أسرة متوسطة من أهل سينا وكانت الفتاة من أسرة ساراسينى التى هى فى الذؤابة من أهل المدينة فكان هذا التفاوت بين الأسرتين سبب عذابهما ونبع مأساتهما ، والهوة السحيقة التى تحول بين أطماعهما في الصلة المقدسة التى تقرب ما بين الجسمين كما قرب الحب بين الروحين

ولا ريب أن القبلة هى أشهى ثمار الحب وأطيب جناه ، لكنها كما يقول الشعراء تلهبه ولا تطفئه .. ومن الشعراء من يدعوها رسول الأبالسة ، لأنها أول الغيث ...

من أجل ذلك لم يستطع الحبيبان على هذا الهوى العذرى اصطباراً ، ومن أجل ذلك صمما أن يكونا زوجين برغم ما بين الأسرتين

وكان لهما صديق راهب أو غسطى ، ما كادا يشكوان له حالهما حتى انبجست الرحمة فى قلبه ، والدموع فى عينيه ، وانطلق بهما من فوره إلى الكنيسة فعقد لهما واستعان على إنجاز ذلك بالكتمان. وهكذا ظل ما بينهما سرهما وسر الراهب . وهكذا تم لهما ما أبته التقاليد والطبقات . فقطفا من ثمار الجنة على غفلة من الأفعى حتى استيقظت ، فذهبت تسعى بينهما وبين الناس لتخرجهما من فردوسها الجميل .

ذلك أنه كان بين ماريوتو وبين أحد النبلاء من سادة سينا عداوة ، فاستطاع الشيطان المغيظ أن يؤجج جذوتها بالوقيعة بين الخصمين ... ولم يلبث الجدال أن صار نضالاً ... ثم تماسكا ... ثم وكزه ماريوتو فقضى عليه ...

وكان عليه بعد هذا أن يفر من الدولة أو يدفع رأسه ثمناً لجريمته ، فلبث حيناً مستخفياً عن أعين الناس ، فلما ضاعت جهود رجال الشرطة سدى فى البحث عنه صدر الحكم عليه بالنفى المؤبد ...

وقد تكلمت الدموع ساعة الوداع ، وضم الحبيب حبيبه يتنفس في صدره ، ويتزود لفراق طويل لا تنتهى مرارته ، وليس معروفاً مداه !

يا لقسوة المقادير توقظ المحبين من سبات عميق كله أحلام !

لقد راح كل منهما يرتو في عينى صاحبه المغرورقتين بالدموع ، وكلاهما بالفراق انجذب بعضهما إلى بعض فى لوعة وفى شجن ، فترف الشفاه المعذبة على الخدود المحترقة ، هائمة حائرة تلتمس العزاء ولا عزاء ، وتنشد السلوان ولا سلوان !

ولقد كان صدر أحدهما يكلم صدر صاحبه بدقات القلب وخطرات النفس ووجيب الروح ... حتى سكتت القبل ... لأنها لا تغنى فى ذلك الحال شيئاً ، وصمتت الأعين ... لأن الفراق الذى لم يكن منه بد قد حم ...

وطمأنها مار يوتو ، فذكر لها أنه نازح إلى الاسكندرية ليقيم عند عمه الثرى الغنى ، وأنه سيكتب إليها من هناك ليتصل القلبان على ذلك البعد ، ثم أكد لها أنه لا بد عائد إلى إيطاليا الجميلة وواصل وإياها حبه ، ولو كلفه ذلك حياته

وفى غمرة من الحزن ، وثورة من الأسى والفجيعة ، افترق الحبيبان ، وفي نفسيهما مرارة ، وفي حشاهما هم ووجد وألم .

* * *

وانطلق مار يوتو إلى شقيق له فكشف له عن سره ، وبثه شكواه ، وتوسل إليه أن ينشر ظل حمايته على زوجته ، وأن يكتب له عن أحوالها ، وأن يكون حارسها بالنيابة عنه ... حتى يعود

وركب البحر إلى الاسكندرية ، فتلقاه عمه بالبشر والبشاشة ، ووجد فيه مؤنساً له فى دار الغربة ... ولما باح له ماريوتو بسره ، لم يشأ الرجل النبيل أن يثرّب عليه أو أن يعزله ، بل أذهب عنه الحزن بكلمات طيبات ، وغلا ثمناه بصلاح الحال وتلافي ما وقع بينه وبين أسرة القتيل من خصومة وعداء ... ولم يكن ذلك من الجد فى شىء ، لكنه كان مبالغة فى إكرام مثوى الفتى ، الذى استطاع أن يخلب لب عمه بأسلوبه الغرامي الحزين الحنون ...

وعهد إليه عمه ببعض مهامه التجارية لتشغله قليلاً عن أحزانه ، ثم أشركه معه فى منزله الجميل على شاطىء البحر الأبيض ، فكان ماريوتو كلما فرغ من عمل النهار ، خلا إلى نفسه فى الليل ، ففتح النافذة المطلة على البحر العتيد ، وراح يتنسم أنفاسه ، ويستروح صباه ، ويقرأ من حبيبته أو يكتب إليها ، ويغسل ذلك كله بدموعه الحرار الطاهرات ، وكانت هذه اللحظات على ما فيها من ألم وما بطنت به من عذاب وهم ، أسعد لحظات حياته ، لأنها شعر الماضى وأحلامه ، تطفو على سطح الحاضر ، وتتعلل بالآمال ظلام المستقبل

* * *

وتحالفت الهموم على چيانوزا فزادتها جمالاً ، وهام بها شباب المدينة هياماً جعلهم يتزاحمون على قدميها فى كل طريق ، كما يتراءى الفراش فى اللهب . وذهب كثير منهم إلى أبيها يخطبونها على أنفسهم ، ويغمرونها بكل ما يملكون ، وكان الوالد كلما كلمها فى أحدهم تعللت وانتحلت المعاذير ؛ فكان الأب الحائر يترفق بها ويتلطف ، ثم ينزل عند مشيئتها بغير ما حجة ولا برهان مبين ، ثم يصرف شباب المدينة فى حدب وفي استحياء

وهكذا ظل السر الرهيب دفيناً فى صدر الفتاة يعذبها ، ولكنه مع ذاك كان مصدر سعادتها

الباكية ، ولذتها الحزينة ، والنبع ذا الخرير الذي تختلط فيه آلام الماضي وآلام الحاضر لتثمر مخاوف المستقبل

وضاقت بها أفانين المعاذير فلم تعد تدري ماذا تلفق منها وماذا تدع ، فلما أحست أن الشكوك أخذت تساور أباها من جراء هذا التمنع ، وأنه يلح في معرفة سرها ، قلق قلبها الخفاق ، وسدرت نفسها المستهامة ... ثم ذكرت الراهب الصغير الذي في وسعه أن يصنع كل شيء ... فانسرقت إليه ، وذكرت له ما كان من قرار ماريوتو إلى الإسكندرية وما كان من إلحاح أبيها عليها بالزواج ، وما حرصت عليه من كتمان زواجها على أبويها ، وكرهها أن تبوح به خشية ما يجر إليه من عواقب ... ثم سكبت عبراتها بين يدي القس ونثرتها على قدميه ، وتوسلت إليه أن يخلصها مما هي فيه بجرعة من السم المقدس تريحها من هموم الحياة ، وتحول بين الفضيحة وبين سرها وحبها (١)

وقد تردد الراهب أول الأمر ، لكنه سرعان أن رق للفتاة ، ولان قلبه للحبيب النازح ، فتناول كأساً روية من الخمر وجرع ما فيها ... وكأنما شرب منها شجاعة ، وعب حماسة وإقداماً ... فتهلل وجهه ، وربت على كتفي چيانوزا ، ثم وعدها عدة جميلة ، وأمرها أن تنطلق إلى ذويها فتسلس لهم فتلقاها القياد وترضى بمن يختاره أبوها بعلاً لها ...

وسجدت الفتاة وشكرت له ، وانطلقت إلى دارها فتلقاها أبوها بمثل ما كان يتلقاها به كل يوم وكل ساعة ، وما كاد يكرر عرضه عليها حتى قبلته ، فطفر قلبه من الفرح ، وطبع على رأسها قبلة العطف والحنان

وذهبت في الموعد الذي حدده لها القس ، فأعطاها زجاجة صغيرة تحوي الجرعة السحرية الهائلة ... ثم ذكر لها أنه لم يصنع لها السم الذي رغبت فيه ، بل صنع منوماً يدع شاربه في حالة تشبه الموت لمدة ثلاثة أيام ... « فإذا حسوت هذه الجرعة وتغشاك النعاس ، وظن أهلوك أنك ميتة ، حملوك إلى قبونا لتدفني فيه ، وسأزورك في اليوم الثالث وأتولى إيقاظك بنفسي ، وبهذا يكون ما بينك وبينهم قد انقطع ، فتستطيعين السفر إلى الاسكندرية حيث تلقين زوجك ، وحيث تكللان كما عين السعادة ... »

واغرورقت عينا چيانوزا بدموع علوية ، ثم قبلت يد القس ، وانطلقت إلى بيتها تحلم أحلاماً رائعة جميلة

وجلست تكتب كل ذلك لحبيبها ماريوتو ، فلما فرغت أهوت على الخطاب تلثم اسمه الحبيب في كل سطر ، وخرجت لتدفع بالخطاب إلى من يوصله إلى السفينة الشرقية ، فلما عادت ، فتحت النافذة ، وصلت صلاة قصيرة ، وتمتمت باسم ماريوتو ، ثم شربت الجرعة الثمينة ، وانطرحت في سريرها .. وأغمضت عينيها

ودخل الخدم في الصباح بالورد والبنفسج ورياحين الربيع لمولاتهن ، فلشد ما ذعرت قلوبهن وجفلت نفوسهن لأن سيدتهن لا تستيقظ

وأهرع أبوها وبعض ضيفه فوقفوا فوقها مبهوتين مأخوذين ، ثم استدعوا أطباء سينا فما نفع طبهم ولا أفلحت حيلهم ، بل ذهبت جميعاً أدراج الرياح

(١) يلاحظ القارئ حينما يبلغ هذا الحد من القصة ذلك الشبه الكبير بينها وبين روميو وجولييت لشاكسبير ، وقد ولد الكاتب سنة ١٤٢٠ ومات سنة ١٥٠٠ وهو بذلك قد سبق شاكسبير بخمسة كبيرة ، ثم هو أيضاً منشئ هذا الضرب من الأدب الذي استقى منه كاتب قصة جولييت لويجي داپورتو (١٤٨٦ — ١٥٢٩) التي أخذ منها شاكسبير موضوع مأساته الخالدة . وسننقل قصة لويجي لقراء الرواية بعد هذه القصة إن شاء الله . أما شاكسبير فقد كتب دراماته بين سنتي (١٥٩١ — ١٦١١)

وقرّ رأيهم على أن يتركوها حتى اليوم التالى ، « فقد تكون نائمة بتأثير شلل فى المعدة لا يزول إلا فى هذا الميعاد ! » لكن الميعاد فات ولم تستيقظ جيانوزا ، فلم يعد بد من دفنها ، لأنها ميتة ما فى ذلك شك

وخرجت جميع عذارى سينا يتهادين وراء الأران ، ويحملن أفنان الزهر إلى مقابر سانت أوجستين ... ثم عاد الجميع وكل قلوبهم حُرّق ، وملء نفوسهم أشجان وأحزان ...

وخشى الراهب أن تستيقظ جيانوزا فى ظلام الليل البهيم فتذعر ، ولا يكون من موتها لهذا السبب من بد ، فمضى إلى القبو هو ورفيق له ، ونقلا التابوت الحىّ إلى غرفته الخاصة

وحانت الساعة الموعودة ... واستيقظت جيانوزا من سباتها العميق بين يدى الراهب المفزوع ، وأخذت فى الاستعداد للرحلة ... الرحلة المنشودة إلى فردوسها المفقود ... إلى ماريوتو ... إلى الزوج العزيز الذى اقتحمت فى سبيله أصرم العقبات !

وقد دبّر لها القس ثياب راهبة . وبعد أن دعا لها بخير ، انطلقت إلى ميناء بيزا ، حيث ركبت فى سفينة متجهة إلى الاسكندرية مع كثير غيرها

وقد لعب البحر بهذه الحفنة من السفن شهوراً طويلة ، وكأنما كان ذلك لتمام المأساة . وذاك أنه لما علم جارجانو — شقيق ماريوتو — بما كان من وفاة الفتاة ، فانه أرسل إلى أخيه كتاباً طويلاً ينعيها إليه ، ويطلب له الصبر والسلوان . وقد وصل الخطاب قبل أن تصل جيانوزا ، وقبل أن يصل خطابها الذى سطرته إليه قبيل تحسيها الجرعة ... فواهاً للمحبين إذا عثر بهم الحظ ... وإذا لجّ بهم المثار ! !

مسكين ماريوتو ! ! لقد فض خطاب أخيه بيدين مرتجفتين ، وتمناه أن يتلو فيه خبراً يسره ... فماذا قرأ ؟ ...

« جيانوزا ... لقد ماتت جيانوزا يا أخى ... فتجلد ... وهذه غاية كل حى ! ...

« لقد كنت أوثر ألا أبعث إليك بهذا النبأ .. لكننى اضطررت أن أفاجئك بالحق ليهدأ قلبك ، وتستريح نفسك ، وليعمرها الله بالايمان ! ... »

ولم تنحدر عبرة واحدة من عينى ماريوتو ... وأنى له أن يبكى ، وليس أعصى من الدمع فى هذه المآسى التى تزلزل النفس ، ولا تنبجس لها العين ...

وشاع فى نفسه الحزن الصامت الذى ليس أنكى منه مرارة ولا أحر وَجْداً ...

وعبثاً حاول عمه أن يواسيه ... وصمم الزوج الحزين أن يبحر من فوره إلى إيطاليا ، ليقف على ثرى حبيبته ، وليسقيه بدموعه ، ولينشق هذا الهواء المريض الذى نشقته قبيل موتها من أجله ، وفنائها بسبيله ... ولأنه لا يليق به أن يخشى شيئاً فى سينا بعد أن قضت حبيبته ، وتحملت الأذى والهوان من أجله

وأرست السفينة فى نابلى ، وانطلق ماريوتو فى ثياب حاج إلى سينا ، واشترى آلات رأى أنها لا بد منها لينقب بها حائط القبو ، حتى يتيسر له الدخول إلى حيث تقر رفات معبودته ، فيجزيها حزناً بحزن ووفاء بوفاء ، ثم لينام جنبها إلى الأبد ، لأنه لا يطيق البقاء بعدها

واختبأ فى الكنيسة إلى أن جنّه الليل ، حتى إذا نام الجميع ، وأمن أن يعثر به أحد ، أخذ فى نقب جدار القبو ، وأعمل فيه آلاته ... وقبل أن يفرغ من هذا شعر به حارس المقابر ، فنفخ فى صوره ... وظل ينفخ فيه حتى استيقظ الرهبان ، واجتمعوا عليه ... لكنه كان قد فرغ من عمله ، وانفتل داخل القبو ... وفى ظل شمعتين صفراوين

شاحبتين ، وقف على رمس ظنه رمس حبيبته

وكانت التقارير السرية قد انتشرت فى أيدى الجواسيس تعلن وصوله ... فلما قبض عليه ... وسيق إلى قضاته ... باح لهم باعتراف جامع ناجع ، وساعدته دموعه التى كان ينضح بها كلماته ، فهاج شجون النظارة وفجر فى قلوبهم شآبيب الحنان ، حتى إن كثيراً من النساء وبعض أصدقائه ، عرضوا على المحكمة أن تسمح لهم بمشاركته فى جريرته ، أو إلقائها كلها على كواهلهم ، إذا كان ذلك شافعاً لإطلاق سراحه ... ولكن ... هيهات ! ... لقد زجر كبير القضاة ، وتهدد الحضور إن تدخلوا فى إجراءات العدالة ، أو اعترضوا سبيلها ... فصمتوا ... وانتهت المحاكمة ... وصدر حكم الظالمين القساة بالاعدام ! !

* * *

ووصلت جيانوزا بعد لأى وبعد عناء شديد إلى الاسكندرية ، وانطلقت من فورها إلى بيت العم العزيز الذى تلقاها كابنته ، وأعز الناس عليه

ولم يشأ أول الأمر أن يفجأها بسفر ماريوتو ، بل تركها تسرد عليه قصة موتها المدّعى ، حتى إذا فرغت منها تبسم الرجل الخيّر ، وترفق ثم ترفق ، ثم ضحك ضحكة عالية مبالغة فى ترفقه ، ثم ذكر لها أن ماريوتو قد تسلم رسالة من شقيقه ينعيها له فيها وأنه منذ ذلك اليوم لم يعد إلى البيت ، وأن أكبر ظنه أنه رحل إلى الوطن ...

يا آخر الأنباء السود ما أشأمك !

مسكينة جيانوزا ! أبعد طول النضال فى البر والبحر ، وبدلاً من أن تضم إلى صدرها المعذب حبيبها المشوق تحضر إلى الاسكندرية فيبدهها هذا النبأ ...

يا عين ! اسفحى شئونك ! ويا قلب ! لا يقف خفقانك ! ويا نفس ! تساقطى فى محيط الأحزان أنفساً !

وأخذ الشيخ يواسى جيانوزا ... ثم عرض عليها أن يرحل معها إلى نابلى ثم إلى سينا ، ليلقيا ماريوتو حياً أو ميتاً .. فاستخرطت الفتاة فى البكاء وشكرت للعم العزيز ما غمرها به من عطف ولطف

وتنكرت جيانوزا من جديد فى مسوح الرهبان ويممت شطر الشاطئ لتركب البحر فى كنف الرجل الطيب ... وهمت بهما الفلك إلى الشاطئ التوسكانى حيث أرست عند بيومبينو ... وحلت الفتاة ضيفة عزيزة على السر نيقولا ... نيقولا الغنى صاحب ڤيللا نيقولا ... عم ماريوتو ... التاجر الأسكندري ... وهى ڤيللا جميلة قريبة من سينا

وكانت نهاية الفجيعة أن ماريوتو المسكين قد نفذ فيه حكم الإعدام قبل وصول زوجته وعمه بثلاثة أيام ! !

وما ذا يكتب القلم فى هذه النهاية المشئومة ؟ !

أوه ! لقد سكب العم الطيب مواساته فى دموعه بين يدى جيانوزا ... فماذا صنعت هيه ؟ !

وقبلت أن تقضى البقية الباقية من حياتها المنكودة فى كسر دير !

ولم تستطع أخواتها الراهبات أن يواسينها بشىء فذبلت جيانوزا

ولم تزل تذبل وتذوى كل يوم

ولم تفتأ تصهر قلبها ودموعها بالبكاء على ماريوتو حتى لفظت نفسها الأخير ! ... ربنى مشيئة

من التاريخ الإسلامي

يوم اللقاء

للأستاذ على الطنطاوى

لما خرج (عبد الله) من المنزل المهجور ، كان الليل قد عسعس فانجابت ظلمته عن سنا السحر ، والصبح قد تنفس فتضوّعت أنفاسه الناعشة فى أرجاء هذا الوادى المقدّس ، وكان الكون لابساً ثوب شاعر مُدَلَّه ، أو عابد متبتل يغمر النفس بحسّ سماوىّ لا تصل إلى الإحاطة بوصفه لغات البشر ... ولكنّ عبد الله لم يلتفت إلى شىء من ذلك ، ولم يلق إليه وعيه ، لأن الدنيا قد ماتت فى عينيه منذ عزم على الموت وسلك سبيله ... وماذا ينفع السحر وجمالُه رجلاً فرغ من ذلك كله وخلفه وراءه ليستقبل حفرة الموت التى لا تضيئها أشعة الشمس ، ولا يصل إليها رواء السحر ؟ وماذا يرى المسلول اليائس فى صفاء العيون ، وضحك الورد ، وغناء العصافير ، وهو يعلم أنه سيموت ويحتويه هذا القبر الموحش ... فلا تدرى به الينابيع ولا تكفّ عن وسوستها وتغريدها ، ولا يحفله الورد ولا يمسك ضحكه حزناً عليه ، ولا تأبه له الطيور ولا تقطع من أجله غناءها ... والشمس لا تفتأ تطلع من بعده تغمر الكون بلألائها ، والقمر لا يزال يريق على الدنيا وابلا من نوره الفضىّ .. وكل شىء يبقى على حاله بينا يكون هو قد ذهب وانمحى ؟ وماذا يرى المحكوم عليه وهو يساق إلى حبل المشنقة فى بهاء الشمس ، وابتسام الربيع ، وضحك الروض ؟ إن المرء لا يجد فى الكون إلا صورة نفسه ، وخيالة عواطفه ، فأى شىء يجده (عبد الله) وليس فى نفسه إلا ذكرى ماضٍ بارع قطف ثماره أمداً طويلاً ، ثم عصفت به رياح الفناء فصوّح نبته ، وذوت غصونه ، وصورة مستقبل غامض يسلم إليه أمه المكينة ، لا يدرى من أمره شيئاً ولكنه لا يثق به ولا يطمئن إليه ، وهو بينهما يمشى طائعاً مختاراً إلى ... الموت !

* * *

وبلغ (عبد الله) أبواب الحرم ، وهو فى ذهلة عميقة فإذا هو بأبى صفوان عبد الله بن صفوان بن أمية بن خلف ، فألقى عليه نظرة فارغة كأنه ينظر إلى رجل من العالم الآخر لا ببصره ...

— سيدى ! أمير المؤمنين !

. . .

— لقد استطاع رجالى أن يفتحوا لك طريقاً إلى العراق وهذه هى ركائبك ، وهؤلاء هم حرسك . فتلفع يا سيدى بهذا الثوب وسرْ فى أمان الله !

فلبث (عبد الله) صامتاً ، شاخصاً إليه بعينيه ، يردد هذه الكلمات التى سمعها ترديد من لا يفقه لها معنى ، كأنما هو قد أضل فكره وفقد ذكاءه ، أو كأن هذه الكلمات قد خلصت إلى نفسه بعد أن اطرحت معانيها فجاءت خالية لا تدل على شىء ... فريع ابن صفوان وأشفق أن يكون قد أصابه سوء ، وجعل ينظر إليه بعينين تجلّى فيهما الإخلاص

(*) انظر (ليلة الوداع) فى العدد (٣٠) من الرواية

للأمير ، والحب للوالد ، والوفاء للصديق . ولا عجب فى ذلك فلقد كان يرى فى (عبد الله) أميره ووالده وصديقه ، ويوليه من نفسه الحبّ والإكبار . وجعل ابن صفوان يحدّق فيه فيراه دائباً على ترديد هذه الكلمات ، ولكنه يرى وجهه تنبسط أساريره ويخطف على جبينه نور الذكاء ، وتبرق عيناه ببريق العبقرية ، فيطمئن ابن صفوان ويعلم أنه قد عاد إلى نفسه ...

نشط (عبد الله) واستبشر استبشار غريق رأى خشبة النجاة ، وعاشت فى نفسه آماله ، وأورق غصن ماضيه الذاوى فبسط ظلاله الندية على حاضره القاحل المقفر . فأحس كأنه يسمع أبواق النصر التى كان يسمعها فى سالفات أيامه ، وانتهى إلى أذنيه صدى أناشيد الظفر التى كان يهتف بها جنده تحت راياته المنصورة ، وشعر كأن قد عاد إلى إسمه عطره وجلاله ، فرجع ينبش من أفواه الكماة المساعير الذين ذهبوا ينشرون عبقه فى بلاد العرب والعجم ... وكرّت الأيام راجعة فإذا هو يرى عبد الملك وقد روّعه اسمه وأرّقه ، ويبصر رأى المختار الذى ظفر بعامل الأمويين يسقط على قدى عامله وأخيه مصعب ، ثم تقوى هذه الصور فى نفسه وتجيش وتموج حتى تبلغ هذا الحاضر الذى يعيش فيه ، ثم تمتد إلى آفاق المستقبل ، هذا المستقبل الذى ولد ونما واستكمل نموّه فى لحظه ...

وطفت موجة الفرح على نفسه فأحس كأنه فى حلم ، واختلطت عليه الحقيقة بالوهم ، فأخذ بيد ابن صفوان ، وسأله نشوان فرحاً :

— هل قلت إن الطريق مفتوح ؟ أأستطيع أن أخرج من مكة ؟

ولم يكن ابن صفوان ينتظر منه الرضا ، فاستخفه الطرب لرضاه ؛ ونسى أنه يكلم خليفته وآمره . فجعل يهزّ يديه بشدّة :

— نعم ، نعم يا سيدى ، أسرع ، أسرع بالله ، أخشى أن يفوت الأوان . إن الفجر سينبلج !

فينساق (عبد الله) فى الطريق الذى أراده له ابن صفوان ، ويكاد يمضى فيه ؛ ثم يذكر أمه ويعود إلى نفسه مشهدها وهى قابعة فى زاوية البيت ، حزينة ملتاعة ... هل يدع أمّه وحيدة بين براثن هؤلاء الذين يراهم وحوشاً ؟ لا . وتوقف ، وبدا عليه التردد

— سيدى ! إن الوقت قصير

— لن أدع أمى !

— وكيف تدعها يا سيدي ؟ إن الجند سيحملونها معك إلى حيث تمضى ، أو يضمونها حيث لا تنالها أيدى الحجاج

فعاودت عبد الله حماسته ، ولكنه وقف مرة أخرى يفكر ... هبْهُ وصل إلى العراق فماذا ؟ هل تكون العراق خيراً له من الحجاز ؟ لقد ضاعت العراق يوم ضاع مصعب . فهل يذهب إلى خراسان ؟ لقد مد الأمن رواقه على هذه المدن ، أفيقلبها ساحة حرب ؟ لا ، لن يقتل الآلاف من المسلمين ليعيش هو !

وراح يعرض البلاد كلها فى لحظة ، فلا يجد بقعة لم يبلغها ملك أمية ، أفيمضى إلى بلاد الكفر ؟ وضاقت عليه الأرض بما رحبت فاستصغرها وزهد

فيها وفترت همته . وانطفأ هـذا اللهيب الذي وقد فى نفسه وخطف نوره على جبينه ، فاستل يده من يدى أبى صفوان ، وقال له بصوت رهيب :

— اسمع يا أبا صفوان !

فأدرك ابن صفوان أنه سيسمع نبأ لا يسره — فقد نطق وجه (عبد الله) بأنه عازم على الموت قبل أن ينطق به لسـانه ، ولـكنه أرهف أذنيه وذهب يستمع ، فقال له (عبد الله) :

يا ابن صفوان... أخبرنى . أفى طوقك أن تردّ على العالم بهاء الشمس ونورها إذا غمره الليل بسواده القاتم ؟ إن لـكل نهار ليلاً ...

فقاطعه ابن صفوان وقد رأى بارقة سنحت من أمل فحاول أن يتمسك بها

— ... ولـكل ليل فجر يا أمير المؤمنين

ولـكن هذا الفجر لن يسطع على من بين رايات الأمويين استظل بهـا . ولا تتسرب خيوطه من خلال هذا الثوب الذى رضيت لى الفرار فيه ... بل إنه سيسطع . إنى لأرى تباشيره تلوح بيضـاء زاهرة من وراء باب الموت . ولا بدّ لى من ولوج هذا الباب يا ابن صفوان ، فلماذا تأبى علىّ أن ألجه حراً مجيداً ، وترضى لى أن أطبع على لحيتى البيضاء وصمة العار الحمراء ، وأن أختم سفر حياتى الماجدة الحافلة بالبطولة بأبشع خاتمة وأبعدها عن البطولة والمجد ؟ أتأبى علىّ أن أموت ميتة أبى ؟

فى تلك الرملة التى تتكسر على جوانبها أمواج البحر كل مساء ، ويحمل الرافدان دجلة والفرات العذب النمير من أعالى بلاد الروم ليغسلا به حواشيها الأخرى ، وحيث تلتطم رياح الجزيرة ، وتتراقص نسائمها اللينة ... هنالك يا ابن صـفوان يثوى قبر منفرد منعزل : هو قبر أبى !

لقد مات أبى شهيداً . ولـكنه لم يمت فى المعركة الحمراء ، وإنما مات على يد وغد دنىء ، فضاع قـبره فى تلك الفـلاة ... أفيسوؤك أن يموت ابنه وسط المعمعة ، فيقوم قبره فى بطن مكة ، فيشير إليه الناس قائلين : هذا قبر الشيخ الذى مات شهـيد المعركة اللتهبة ، وتمتـد أيديهم إلى السماء يسألون لى الرحمة والغيث ، ثم يمسكون بقلوبهم مخافة أن يهزّها هذا الدرس الصامت ، فتنفجر من الحماسة !

لماذا تأبى علىّ أن أموت ميتة أخى البطل مصعب ، وأنت الذى مجـد مصرعه ، واتخذه مثـلاً للبطولة والتضحية والشرف ؟ ألا يسرّك أن أشترى بدمى حيـاة هذه الأمة ، فتعود السعادة إلى هذه البقعة الطاهرة ، ويخيم عليها الأمن ، وتستعد لتحمل رسالة الله إلى الدنيا ... مرة ثانية

إنك لن تستطيع أن تردّ ما فات . أرجع إلى الزهرة الجافـة رواءها وعطرهـا . ردّ على الشيخ الهرم شبابه وقوته . أعد للنهار الآفل ضحاه !

لقد انتهى كل شىء !

فلن تـكون خاتمة حياتى أن أفرّ تحت ثوب امرأة ...

وأخذ الثوب بقلبه بيده ، وعلى وجهه ابتسامة ساخرة ، فيها آيات القنوط المرعب ، والاستهانة الهائلة ، والاقدام المخيف

— لا . لا يا ابن صفوان ، إن عبدالله بن الزبير

أكرم من أن يتشح بثوب امرأة . لا لن أفرّ
(يئس الشيخ أنا إذن فى الإسلام إن أوقعت قوماً ثم فررت عن مثل مصارعهم[1])

— سيدى !

— ابن صفوان !

ثم التفّت الأذرع فى عناق جمعت فيه الصداقة والمحبة والتضحية أروع قطوفها ، ثم تخلص الشيخ من ذراعى ابن صفوان وأمسك برأسه فقبّله بين عينيه

— جزاك الله خيراً يا ابن صفوان ، فلقد والله وفيت لى حين غدر الناس بى ، ولزمتنى حين تركنى ابْناىْ ، فكانت صداقتك أوثق من الولادة ، وأثمن من البنوة ، ولقد كنت رفيقى فى اليوم الأسود كما كنت رفيقى فى الليالى البيض ، ومننت وأجزلت ولم تدع لى إلا حاجة واحدة ، فاخبرنى هل تقضيها لى ؟

فترق نفس ابن صفوان ويطفر الدمع من عينيه

— ولو كان فى قضائها موتى !

— بل فيها حياتك إن شاء الله ، فأنا أعزم عليك إلا ما نجوت بنفسك

— معاذ الله يا سيدى !

— أنى لتقرعينى فى حياتى ، وتسكن عظامى بعد موتى ، إذا أنت نجوت بنفسك . قل إنك فاعل !

— معاذ الله يا سيدى ، أموت معك كما حييت معك !

* * *

وكان الفجر قد انبلج وأرعدت هذه الأوعار والصخور وأبرقت ، فضاع هذا الحديث الخافت فى جلبة الجيش المنتصر وإرعاده . فقطع (عبد الله) الحديث وانثنى نحو الكعبة يأمر مؤذنه باعلانه الفجر ، وكان محتفظاً بعظمته وجلاله ، فكأن هذا الفشل المتتابع وهذه الخيبة الشاملة ، لم تنل منه قليلاً ولا كثيراً . وكان جنده الأوفياء ينظرون إليه فيمدهم بجلده واحتماله ، وتسرى فيهم هذه العزّة ، فيطوون جوانحهم على قلوب ملؤها القوة والأمل . وهل فى الدنيا أقوى من عصبة تريد أن تموت ؟ إن العدوّ يفزعها بالموت ، والموت أكبر أمانيها ، فكأن عدوّها خادم لها ، مسخر لرغباتها !

ودوّى صوت المؤذن قوياً واضحاً ، فجاوبه من تلك الأوعار صوت آخر واضح قوىّ : الله أكبر ! الله أكبر !

— الله أكبر من هذا الجيش وهذه الدنيا ، ولكن هؤلاء قد نسوا معانى (الله أكبر) وأضاعوا جوهرها

ذلك ما كانت تناجى به نفسها هذه العجوز وراء سور الحرم

وكانت قد أوت إلى هذه الزاوية لتودع ابنها ، وتحتفظ بذكرياته الأخيرة ، وتسمع جرسه ، تختزن فى نفسها هذه الصور التى ستكون من بعد ينبوع حياتها ، وستعيش بقية أيامها بذكراها . وقد لبثت هذه العجوز فى مكانها من المنزل المهجور ، بعد أن ودّعها ابنها ، تبكى وتتقاذفها شتى الأفكار ، حتى نالت منها متاعب اليوم ، وأوقار الشيخوخة ، فاستسلمت إلى نوم مزعج متقطع تضطرب فيه الأحلام المرعبة ... فرأت ابنها بأيدى الجنود الشاميين تنوشه رماحهم وسيوفهم ، فوثب قلبها من صدرها وجعلت تصيح وهى نائمة : دعوه .

(١) هذه الجملة فقط من التاريخ

دعوه لى ، لا تقتلوه ، قد ترك لكم الخلافة فاتركوه لى ...

وأفاقت مذعورة وقد طار النوم من آماقها ، فلم تطق البقاء وابنها على عتبة الموت ، فقامت تحمل آلامها وأوجاعها ، وأثقال هذا القرن الكامل الذى يجثم على عاتقها ... هذه السنين المائة ... وتوجهت تلقاء الحرم ، وكانت تفكر فى ابنها ، ماذا عليها لو أنها أخذته من بين مخالب الموت ثم عاشت معه فى ركن منعزل من أركان هذا الكون الواسع ؟ أيؤذى عبد الملك وقد تم له الأمر وأطاعه الناس كلهم أن تعيش عجوز بجانب ابنها ؟ ألا يجد لذته إلا فى ألمي ... وهمت العجوز باستنزال اللعنات على عبد الملك ، ثم رجعت إلى نفسها تفكر فى عبد الله فاذا هو لا يقر ولا يهدأ ، وإذا هو صاعقة حيثما نزلت خرّبت ، وقلبت الأرض عاليها سافلها ، فلا يقرّ لهذه الأمة قرار ...

وكانت قد بلغت الحرم فسمعت صوت المؤذن يردد التكبير ، فيعود الصدى من هذه الأوعار بمثل تكبيره ، فأصغت فإذا ما حسبته صدى أذانُ أهل الشام ، فآلمها هذا الانقسام وجعلت تتكلم همساً كأنما تخاطب نفسها :

— يا لهؤلاء الذين نسوا معانى (الله أكبر) وأضاعوا جوهرها ...

وفى تلك اللحظة تقدم هذا الشيخ الذى كان أمير المؤمنين ، ووارث كسرى وقيصر ، ليصلى آخر صلاة له فى ظل الكعبة ، فسمعته العجوز ، ولم يكن بينها وبينه إلا جدار قصير ، فنازعتها نفسها إليه ، واشتاقت إلى عناقه وشمه ! ، ولم يكن يكلفها ذلك إلا همساً خافتاً يعلم منه موضعها ، فكادت تهمس باسمه ، وقويت هذه الرغبة فى نفسها ، حتى لقد توهمت أن ابنها قد دلف إليها يعانقها ، فمدت يديها تعانقه فسقطتا على جنبيها ... وكان قلبها يرتفع فى صدرها حتى يبلغ حنجرتها ، يذوب حزناً وكمداً ، ويسيل من عينيها المنطفئتين قطرات من الدمع ... ولكنها لبثت ساكنة صابرة على قضاء الله

* * *

انتقل هذا الشيخ من صلاته ، وقد رق الظلام ، وانبعثت فيه أشعة الفجر ، فأراقت على الحرم ظلالاً من النور ، فاستطاع أن يتأمل فى أصحابه الذين لبثوا على وفائهم له لم يخذلوه كما خذله ابنه حمزة ، فمرت على وجهه سحابة من غم حين ذكر أن حمزة قائم فى هذه الساعة تحت رايات الحجاج ينتظر أن يرى أباه معلقاً على خشبته ، ليرقص فى مأتمه ، ويظفر باسلابه ، وكاد يجارى غضبه ويقذفه بلمنة حمراء تتسلسل فى أصلاب ذريته ، فلا ينجو من جناها المسموم جيل ؛ ولكنه أمسك ولم يحب أن يكسب أولاده هذا الشر المستطير فى آخر لحظة من حياته ... وينظر إلى هؤلاء الفتية فيروقه شبابهم المزهر ، ويضنّ بهذا الصبا الغض على الموت ، ويعلم بأنه ميت لا ينفعه دفاعهم شيئاً ، فأرادهم على الحياة وزينها لهم ، وابتغى إلى إقناعهم شتى السبل ، وأفانين الأساليب ، فأبى لهم وفاؤهم ومروءتهم ودينهم وما كانوا يعتقدون من ضلال الأمويين إلا الموت ...

فرقت نفس هذا الشيخ ، وغمرها الحب

والرضا ، فأحبّ أن ينظر إلى هذه الوجوه ، وأن يجعل صورها زاداً له من دنياه فى جولته الأخيرة ، فقد كانوا ثمالة ذلك الجيش العظيم ، وبقية أولئك الأبطال القطاريف ، الذين كان فى وسعهم أن يقلعوا قيصر من كرسيه فى القسطنطينية كما قلعوا كسرى من عرشه فى المدائن ، لولا أن ألقى بأسهم بينهم ، فأصبحوا يحسبون مجد القائد المسلم فى الانتصار على القائد المسلم ، ويرون المعركة الظافرة هى التى تأكل إخوانهم فى الدين وفى النسب ، ويرون الفتح الأغر فى استباحة مدينة الرسول ، أو العبث بقصبة الخلافة

وكان هؤلاء الفتية قد لبسوا الحديد واتخذوا المغافر لا يبين منهم إلا الحدق . فلما أرادهم (عبد الله) على كشف وجوههم أزاحوا هذه المغافر فأضاءت وجوههم كما تضىء الأقمار ، ولكن شعاعها وميض الجمال الفاضل ، وبريق الاخلاص والذكاء ، فأشجاه أن تكون هذه الوجوه فريسة السيوف بعد ساعة واحدة ، وأن يذهب هذا الشباب الناضر وأن يخسر جيش المسلمين هؤلاء الفتيان الأشاوس : ومن منصيبه سيوفهم الماضية ينالونه بها قبل أن يموتوا . فعاد يدعوهم إلى الحياة ورجموا يأبون

— قال : أما إذ أبيتم (فلا يرعكم وقع السيوف فان الدواء للجراح أشد من ألم وقعها . صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم . غضوا أبصاركم عن البارقة وليشغل كل امرئ قرنه ، ولا تسألوا عنى فمن كان سائلاً عنى فانى فى الرعيل الأول . احملوا على بركة الله[1])

فهتف هؤلاء الجنود هتافاً عالياً ، وأنشدوا أناشيد الحرب ... ولكن أصواتهم ذابت فى هزيم الرعود التى تفجرت من حلوق الأمويين وهم منحدرون من أوعارهم وأسلادهم التى اعتصموا بها يتدفقون نحو أبواب الحرم . ودارت المعركة فى البقعة المقدسة التى كانت ملجأ الناس ، ومثابة الأمن فى الجاهلية وفى الاسلام !

* * *

بلغ هذا الزحف أبواب الحرم الأقدس ، واشتركت فى حمل وزر هذا الزحف مدن من الشام تعاونت على العبث بحرمة المسجد وإراقة الدم الزكى على أرضه الطاهرة ، فكانت حمص بجندها على الباب الذي يواجه الكعبة تحاول أن تقتحمه لا لتطوف بالبيت العتيق ، ولا لتقوم فيه لرب العالمين ، بل لتستبيح فيه حرمة الدم الحرام فى الشهر الحرام فى المسجد الحرام ... وكانت دمشق على باب بنى شيبة ، وكان أهل الأردن على باب الصفا ، وأهل فلسطين على باب بنى جمح ، وأهل قنسرين على باب بنى تميم ، وكان الحجاج قائد هذا الجيش الذى هدم بيت الله فى ناحية الأبطح ... تدفقت هذه الجموع برايتها وكبريائها وقوادها وجندها ، وسلاحها وعتادها ، وحماستها وهتافها ، ولكنها لم تستطع أن تتقدم. ردها وحده هذا الشيخ :

هذا الشيخ الذى أدنته الأيام من الثمانين فكان من حقه أن يستريح أثر حياة صاخبة ، وأن يقضى بقية أيامه فى دعة وهدوء .. قد جفا راحته وهناءه ووقف وسط الحرم كالأسد الهائج يدافع عن عرينه بلبدته البيضاء وشيبته المهيبة قد دارت مقلتاه

(١) هذه الجملة من التاريخ

اللتان تنفضان الشرر على هذه الأبواب ، فكلما رأى باباً انفتح كرّ على أهله فردهم على أعقابهم ، فكان يحمل مرة هاهنا ، ومرة هاهنا ، حتى ارتفع الضحا ولم يقرّ الشيخ ولم يهدأ .. فأحس بالونى فى أعصابه وكلت يداه . وأى رجل يستطيع أن يجالد مثل هذا الجلاد ؟ وأى رجل يقدر أن يقف وحده فى وجه هذا السيل الطامى من البشر ، وكلما أزاح من طريقه واحداً حلّ فى مكانته مائة ... فوقف لحظة يستريح وتلفت فاذا هو بابن صفوان لم يفارقه

— أبا صفوان ، ويلمه فتحاً لو كان له رجال ! والله لو كان قرنى واحداً كفيته[1]

فيقول أبو صفوان :

— أى والله وألف ...

وتدور رحى الحرب من جديد قد دفعها الحجاج دفعة انطلقت على أثرها مدوية مرعدة تسيل على جوانبها الدماء ، وتزهق الأرواح فيدوران معها ..

* * *

حتى إذا زال النهار وتلهبت شمس مكة فجمعت على الناس نارين : نار الحر ونار الحرب ، ضاق ابن الزبير وأصحابه ذرعاً فجمعوا بقية عزمهم ، وأقدموا إقدام المستميت فلم يرجعوا حتى أجلوا هذا الجيش العرمرم عن الحرم وردوهم حتى بلغوا بهم الحجون وكان فى طوقهم أن يردوهم إلى أبواب الشام ، ولكنهم كانوا عشرات من الناس يحاربون الوفا مؤلفة :

ورجع عبد الله إلى الحرم وقد خلت ساحته . إلا من الحجارة التى نثرتها المنجنيقات من جدار الكعبة ، وأشلاء القتلى ودمائهم وهذه البقية الباقية من جنده ، تغلب عليه الألم لما حلّ بالمسلمين ، وعزف عن الطعام والشراب فلم يفكر فيهما ولا فى الراحة المسعدة أثر هذا الجهد الحاطم ، وإنما أقبل يريد أن يصلى فى ظل الكعبة فيناجى ربه ويستغفره ويودّع دنياه ... ولكنه لم يدن من الحطيم حتى وقف مرتجفاً قد اهتز من مفرقه إلى قدميه كما تهتز القصبة فى الريح النكباء ، وفتح عينيه يحدق ... إنه لا يشك فى أنها هى ...

— يا إلهى ... ما الذى جاء بها إلى هنا ؟

ودنا منها متلصصاً يمشى على رؤوس أصابعه فاذا هى صامتة جامدة لا تتحرك ولا تنبس

— أهى ميتة ؟

واقترب حتى حاذاها فأحست به وصاحت :

— من أنت ؟

فلم يجب ، فعادت تصرخ :

— من هذا الذى يمد يده إلى امرأة عجوز ؟ ويلكم أما كفاكم أن دفعت إليكم ابنى لتقتلوه ... آه أين أنت يا عبد الله ؟

وسمعها تبكى بكاء خافتاً فتحرك ، فعادت إلى تصريخها :

— قلت لك ابتعد أيها الوغد ، أنسيتم أخلاقكم ومروءتكم ، واستبدلتم بها هذه الأخلاق التى ترى البطولة فى البطش بعجوز عمياء لا تريد أن تؤذى أحداً ؟ آه لو أن عبد الله كان حياً ؟ أين أنت يا عبد الله ؟ عبد الله ...

وراحت تنشج نشيجاً أليماً ، حتى لقد ظهر أنها ستشرق بدمعها ، وخال روحها ستزهق فى نشيجها ،

(١) هذه الجملة من التاريخ

وأحسّ كأن قلبه يقطع بسكين ، ونسي الحرب والنضال ، وهمّ بأن يلقي نفسه بين ذراعيها كما فعل في ليلة الأمس ، ثم يحملها إلى بقعة من أرض الله الواسعة تقضي فيها لياليها الباقيات ، ثم يردّه الحفاظ والدين وهذه الغاية التي باع نفسه من أجلها ...

وكان يسمع اسمه يرتجف في غضون الزفرات يخرج بصوت مكلوم ، يلهب قلبه كأن فيه قبساً من قلبها المحترق ، فخاف أن يغلبه ضعفه البشري . وانتهى إلى أذنيه هتاف أهل الشام وقد أقبلوا كرّة أخرى كما يقبل البحر بعدّه على الساحل بعد أن نأى عنه في جزر طويل ، فعاف مكانه حيال أمه ، وذهب يستقبل الموت ، وقد مات من قبله مراراً ...

* * *

وكان في شعب من شعاب مكة النائية عن الحرم ، شيخ جليل قد اعتزل الحرب هو وأصحابه ، لأن دينه لم يبح له أن يحارب أبناء دينه ، ومروءته تمنعه من تجريد سلاحه في وجوه إخوانه ، وذهب ينتظر في هذا الشعب النائي

كان عبد الله بن عمر معتزلا يحسر لأصحابه عما يخامر نفسه من ألم لتفرق المسلمين ، ويحدثهم حديث الرسول الذي جاء بالإسلام فألف بين القلوب ، وجمع الناس جميعاً ... ويرقب انكشاف هذه الغمّة . فسمع التكبير (ظهر يوم الثلاثاء ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٤) يتجلجل في حلوق الشاميين ، فاسترجع ومدّ يده إلى عينيه الهامدتين فمسح دمعة خال أنها تترقرق فيهما ، وأقبل على أصحابه فقال لهم :

— ألا تسمعون التكبير ؟ والله لقد كبر المسلمون مثل ذلك من قبل ، في ليالي الهجرة الأولى ، وارتجت لتكبيرهم حرّتا المدينة وتمايد نخيلها ، وأشرق وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لولادة هذا الرجل الذين يكبر المسلمون اليوم لموته ! ...

رحمة الله عليك يا أبا خبيب ، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا ، ولقد كنت والله صواماً قواماً وصولا للرحم[1]

لما أقدم عبد الله ، تساقط الشاميون تحت سيفه كما تتساقط أوراق الخريف ، وانزاحوا من بين يديه ، ولكنّ رجلا ممن عجز عن مواجهته في المعمعة ومقابلته بالسيف ، قذفه بآجرة ضخمة ، فعل الجبان الرعديد ، فأصاب بها وجهه وهشمه ...

أحس عبد الله كأن أعصابه كلها قد مزقت واستلت من جسمه دفعة ، وشعر في رأسه بأشد من لذع النار ، ودار الكون من حوله وتداخلت في عينيه المشاهد ، فزاغ بصره ولم يعد يرى شيئاً ، ثم هوى ... ... ولكنه نهض بعد لحظة واحدة . نشيطاً سليماً يكاد يتوثب من الصحة والنشاط ، فأقدم مجالداً ، فلم يعرض له أحد ، فعجب ، وأغار على القوم ، فلم يرعه إلا أنه يخترق الجموع ، لا يمنعه أحد ، حتى جاز الجيش كله وصار إلى الفضاء والحرية فوقف يفكر ويذكر أمره ... فلم يعرف منه شيئاً ، ولم يجد في أعماق نفسه إلا لذة لا توصف ، وطرباً لا يحد ولا يعرّف . فرجع يوغل في هذا الجيش ، فإذا هو يخترقه كرّة أخرى ، ويتغلغل بين كتائبه وفرسانه ، ثم ينتهي إلى الفضاء ... فينظر حوله ويتمنى أن يعلو هذه الجبال الشامخة ، ثم يجلس على قنة من قننها البواذخ يفكر في أمره . فلا يكاد

(١) هذه الجملة من التاريخ

ينتهى من أمنية حتى يصير فى أعلى الجبل من غير أن يتجشم عنـاء . أو يقاسى تعباً ، فيزداد حيرة وعجباً ، وينظر حواليه فيحسر له البصر عن عوالم عجيبة تموج بالنور ، وتمور بالمشاهد البارعة التى لم ترها عين بشر ، فيأنس إليها ؛ ثم تغلب عليه حيرته المحبوبة اللذيذة ، فيحجب عينيه بكفه وينطلق يفكر ، فإذا كفّه تشف عما وراءها كأنما ينظر من خلال زجاج صافٍ شفاف ، فيجفو مكانه ويمرّ هائماً على وجهه فإذا هو يمضى بسرعة البرق ، يخترق الصخر ، وينفذ من الجبال ، فيزداد دهشة ويبالغ فى سروره ، ثم يسمع من يدعوه باسمه ، فيقف ويتلفت فإذا هو بابن صفوان ...

فيقبل عليه فرحاً بلقائه .. ولـكنه يرتد فجأة ..

— أنت ابن صفوان ؟

— نعم يا سيدى ...

— ولـكن ...

— ماذا ؟

— إن بصرى ينفذ من خلال جسمك !

— وأنا يا سيدى أرى ما وراءك ؟

— ويحك ، ما هذا ؟ أين نحن ؟

— لست أدرى !

— ألا تتذكر شيئاً ؟

فيفكر ابن صفوان ، وينظر حواليه :

— بلى ، أذكر الموقعة ؟

— الموقعة ؟ أى موقعة ؟ ها . لقد ذكرتها ، لقد عادت صورتها إلى نفسى ، ولـكن ... أين نحن ، وأين جيش الحجاج ؟

— هو هناك ... أترى هذه النقطة الدقيقة المائلة فى أقصى الحضيض ؟

عبدالله : من المتكلم ؟

ابن صفوان : من هو الذى يتكلم ؟

— أنا ؟

يضطرب عبدالله وابن صـفوان ، ويجيلان بصريهما فى أرجاء الـكون فلا يريان أحداً

عبدالله : من أنت ؟ أقول لك : من أنت ؟

— هأنذا ! (ويظهر لهما)

عبدالله : زيد ؟

— نعم : أنا زيد !

عبد الله : ولـكنك قدمتّ منذ زمن طويل !

زيد : نعم ، لقدمت منذ زمن طويل

عبدالله : كيف تكون ميتاً ، وأنت حىّ تنطق ؟

— كما تنطق أنت !

— ولـكنى لم أمت ...

— نعم يا سيدى ... ولـكن تعال معى !

وينحدرون بخفة البرق وسرعته ، كأنما كانوا يطيرون بغير جناح ، فلا تمضى لحظة حتى يشرفوا على مكة ...

زيد : ألا ترى يا عبدالله ؟

عبدالله : ما هذا الذي أرى معلقاً على رمح ؟

زيد : رأسك ؟

عبدالله : رأسى أنا ؟ هل جُننت يا زيد ؟ عهدى بك رجلاً لقناً عاقلاً . هذا هو رأسى لايزال مركباً بين كتفىّ !

زيد : وهذه هى جثتك مصلوبة !

عبدالله : (وقد أخذته حيرة ، فجعل ينظر فى

جسده ، ويجسّه ...) ، لا أشك فى أنك قد جننت يا زيد ، إن جثتى صحيحة ...

زيد : إنها جثتك ، ألا تسمع ؟

يصيخ عبدالله بسمعه ، فيسمع حديث القوم حول جثته المصلوبة ، ولكنه لا يصدّق ...

عبدالله : مستحيل ، إن جثتى كاملة ألا تراها ؟ تلك بقايا حشرة حقيرة ، أأنا ويحك أدخل فى جسم حشرة ؟

زيد : ولكنك عشت فيها أكثر من سبعين سنة !

عبدالله : قلت لك ، مستحيل ... لن أرضى أبداً بهذا السجن الضيّق الخانق

زيد : ألا ترى إلى هؤلاء الذين يحفون بالجثة ؟

عبدالله : بلى ، أرى حولها كثيراً من هذه الحشرات الوضيعة ...

زيد : هذا هو جيش الحجاج !

عبدالله : أأرواح بشر تدخل هذه الأجساد الحقيرة وتسجن فيها ؟ إننى لأختنق من تصوّرى الحياة فيها لحظة ...

زيد : كما يحس هؤلاء بالاختناق إذا تصوّروا أنهم عاشوا لحظة فى بطون أمهاتهم . لقد نسيت سجنك الثانى ، كما نسوا سجنهم الأول !

عبد الله : ولكننى لم أمت ، أنا فى غمرة الحياة ...

زيد : إن هذه الحشرات تسمى الحياة الحقيقية موتاً ...

عبدالله : يا للغباوة : ولكنى لم أمت ، بل أنا لم أعرف الحياة إلا اليوم

زيد : ذلك لأنك مت !

عبدالله : أليس فى الموت قيد ؟

زيد : بلى ، وكلنا مطلقون (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون) ، والآن ... هلمّ بنا !

عبد الله — دعنى أرى أمى وأحملها معى

زيد — لا . إنه لم يجىء أهلها فهلم بنا

فينطلق الثلاثة إلى النعيم المقيم في السماء . كما تنطلق العجوز إلى العذاب الدائم فى الأرض !

* * *

حل السلام فى هذه البقعة التى خلقها الله للسلام الدائم . ونزل الحجاج يزيل الأوضار عن الحرم ، ويرفع القواعد من البيت ، ومرت الأيام سراعاً فوورى ابن الزبير فى لحده ، واستغفر الحجاج من جريمة صلبه كما يصلب المجرمون والمفسدون ، وكادت الجروح تندمل ، وأوشك الناس أن يستميدوا هناءتهم وسعادتهم ، بعد هذه الحرب الحاطمة الضروس ، ولكن أسماء لم تستر ح ولم تهنأ ، ولم يبق لها من الدنيا إلا قبر عبد الله ، تلبث الليالى والنهارات عاكفة عليه تبكى وتدعو وتنادى عبدالله ، وكانت تتخيل كأن شخصاً قد ألم بها فتصرخ فيه :

— من أنت أيها الوغد ؟

فيبتلع الصمت صيحتها ولا تسمع من مجيب ، فتعود إلى تجرع آلامها وأحزانها . وإنها لفى مقامها على القبر فى وسط ليلة ساكنة ، وإذا هى بيد تلمسها لمساً رفيقاً ، فيذكرها مسها بعالم غامض يفيض باللذة والأنس ، ويردها إلى ماض بعيد لا تتبينه ولا تعرفه ، عالم عبد الله والزبير . فتحاول أن تمسك

بهذه اليد لترفعها إلى شفتيها فاذا هى لم تمسك إلا الهواء . فيختلط عليها الأمر وتتعوذ بالله وتمد يديها إلى كل جهة تتلمس صاحب هذه اليد فلا تقع يدها على شيء ... ثم تشعر بصوت مستمر يطن فى أذنيها ثم يقوى حتى يشبه هزيم الرعود ، ثم يستحيل إلى ضجة هائلة تحسب أن لم تسمع مثلها الأرض وتشعر بزلزال عظيم . فتميد بها الأرض وتهتز بشدة وعنف ، ثم تحس بيد تقبض على خناقها ، وتطير بها مع الرياح الأربع ، لا بل الرياح الأربعين . فتحوم فى أرجاء الكون بسرعة البرق الخاطف حتى تصير الدنيا كلها خلاء فى نظرها . لأن نظرها لا يستقر على شيء . ثم تلقيها هذه اليد في أعماق هوة سحيقة فلا يبقى عضو من أعضائها إلا أصابه كسر أو حطم ، وتجتمع عليها البرودة القاتلة والصمت المرعب والظلمة المتكاثفة ، فلا تعي من بعد شيئاً

ولكنها تستفيق على صوت يحبب إلى نفسها بذكرها جرسه ورنينه بعوالم تعرفها وتحبها . فاذا هى فى دنيا عبد الله قريبة منه ، بل هى تسمع صوته يدعوها . يدعو أمه بأحب الأسماء إليها . فتمد يديها تمسح دمعة الفرح ، فاذا هى مفتحة العيون تبصر عالماً من النور كل ما فيه جميل ساحر ، وإذا هى ترى (عبد الله) وقد عاد شاباً يفيض وجهه بشراً فتمد ذراعيها تعانقه ، تعانقه حقيقة ...

— أهذا أنت يا عبد الله ؟ ... كلا كلا . إن عبد الله قد مات . فمن أنت ويلك ؟

— أنا عبد الله ! سرعان ما نسيتنى يا أماه . أما تذكرين ليلة دفعتنى إلى الموت ؟

— بلى ، بلى ، ولكن ... رباه . ما ذا أرى

— لقد حسبونى مت . ولكنى ذهبت لأحيا الحياة الحقيقية مع أبي بكر والزبير . تعالى يا أماه ، تعالى :

— هأنذي قد جئت ... عبد الله ! أدركنى إنى أحس كأنى أطير . بل أنا أطير حقاً لقد عدت شابة ... ماذا أرى ؟ عبد الله ... عبـ ...

— مهلاً يا أماه . سنلتقى لقاء لا افتراق بعده

— أقلت أ ... أ ...

* * *

ولما مر الناس فى الصباح على قبر أمير المؤمنين وجدوا أمه ذات النطاقين أسماء بنت أبى بكر الصديق ميتة على القبر !

على الطنطاوى

رفائيـــــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

الزوجة الموروثة

للكاتب الروسي استفان بوريانف

للأستاذ محمد لطفي جمعه

نعم ! هو نفسه ذلك المغنى العظيم الذى ذاعت شهرته فى أنحاء العالم، وطبق صيت عبقريته الخافقين ، فلا كاروزو ، ولا شاليابين نالا شأوه . لقد كان صديق صباى ورفيق شبابى ، وأليف فتوتى ويفوعى .. لاأذكر بالدقة اسم القرية التى كانت مسقط رأسه ، ولكننى متأكد من اسم المقاطعة التى ولد فيها وهي بادولى ، وعاصمتها كبيف . هل كان يهودياً لاأدرى .. لا أظن ذلك ... ربما ! غير أننى أعلم أنه نشأ فقيراً وقاسى من آلام الحاجة ما أورثه مرارة القلب وشدة الحقد على المجتمع . وأذكر أننا كنا ذات يوم فى معبد من المعابد فألفينا المصلين قائمين يضرعون لتمثال معبودهم يلتمسون منه قضاء الحاجات ، وكان من بينهم مرضى وذوو عاهات ويائسون تعلقت آمالهم بربهم تعلقاً اتصلت به سعادتهم ، فتأثرت نفسه ، وجال فى خاطره أنه لو استطاع أن يرشد هذا الجمع إلى كذب ما يعتقد ، وإلى أن معبوده لا يسمع ولا يعى ، لما فعل ، حرصاً على هذا الأمل ، أن يزول .. وهذه الفكرة ، لا تجول إلا بخاطر وثنى أو يهودى .. لأن هذين المتعبدين — الوثنى واليهودى — يتمسكان بمعتقداتهما وتقديس معبوداتهما . أما الوثنية فلا أظنها كانت عقيدة ... لا أدرى كيف أغلب الفكرة على الأخرى ... لقد كان راسكي ذلك المغنى العظيم مجنوناً فى شبابه . ولعل أشد أنواع الجنون ، جنون الشباب ، إذ كان يغتذى من حرارته ، ويستمد غلواءه من غلوائه ، ويأخذ ضرامه من مضطرم عواطفه ، ولا تجد شباباً خلواً من رائحة الجنون ، إذ كان الشباب شعبة منه . لقد بدأ جنونه بعد أن قرأ قصة الآباء والأبناء لتورجنيف . نعم ماذا تقول ؟ هو ذلك الرجل الذى أثر فى ذهن رامسكى أكبر الأثر . لأن تورجنيف كان عاقلا وكلامه معقولا . فإن طلاب الجامعات والمدارس العليا قدمت

تعريف بالقصة

استفان بوريانف من كتاب العقد الأول من القرن العشرين وهو حفيد زوراديك جي المصور الروسى الشهير الذى عاش أمداً فى مقاطعة جنيف (شاتو دو بزيه غير) وقد علقت صورته الشهيرة « الجولجثا » فى متحف جنيف للتصاوير الحديثة ثم منعت مشاهدتها على الجمهور وهى تمثل الصلب وقت الغروب فى ساحة التنفيذ المشهورة فى الانجيل

أما الحفيد استفان فقد حذق اللغات ولا سيما الألمانية والفرنسية وقضى شطراً من شبابه في جبال فيفي وإيفردون وقرية تونون وتعلم ضروباً من الموسيقى وفنوناً من الأدب ونشر أولى قصصه « هل كانت أمى مجنونة » فى مجلة « داشتوت كرويتكلاى » ثم كتب قطعاً مسرحية منها « قطار الحياة السريع » و « رقصة الفيرية » وأحب فى العشرين من عمره إيزيدورا دنكان الراقصة الأمريكية الشهيرة بدله فى حبها وتهتك وصحبها أمداً وتحبرت ينابيع مواهبه فأنتج إنتاجاً غزيراً ، ولكن أدبه أمسى مطبوعاً بطابع الحزن والخيال ، ومصبوغاً بصبغة الألم الدفين ومن أظهر قصصه « الزوجة الموروثة » وفيها من التهكم والحنق المكبوت على الغدر والأنانية واختلاط النبوغ باللوثة أحياناً وامتزاج الحب بالانتقام وجريان دم القتل والعسف في شريان واحد مما يشهد لهذا الكاتب القذف بالتفوق . هذا ولا يزال هذا الأديب على قيد الحياة فى ديفون ، وهى قرية فرنسية ملاصقة لحدود سويسرا

للعالم مناظر جديدة مدهشة . فإن فتياناً نشأ وفتيات شواب ، بدأوا يسخرون من الاعتقادات العامة والتقاليد المصطلحة والعادات المحترمة فى الحياة الاجتماعية ، وشرعوا يتباحثون فى تهذيب المجتمع وتأسيسه على قواعد علمية ، وكان من ذلك أنهم قلبوا النظام القديم حتى فى أتفه الأمور وسفسافها . فأما الذكران منهم فأعفوا شعورهم ، وأما الأناث فقصصن فروعهن . فكانت ظواهرهم وأزياؤهم وأحاديثهم عرضة لسخرية الناس وهزئهم ، ولكنهم كانوا يهزأون بذلك ولا يكترثون ، إذ كانوا قد رفعوا أنفسهم عن مستوى ما يسمونه بالرأى العام ، واحتقروا الرسوم والطقوس ، وكانوا لا يعترفون إلا بمذهب العمل الصالح لصالح الجماعة ... وصرحوا .. أى وحق الشباب والجنون ـ صرحوا بأن الاسكاف المتفوق فى صنعته الفنان فى حرفته خير من بوشكين أو شكسبير وأعظم قدراً ، لأن الإنسانية أحوج إلى الأحذية منها إلى الشعر ولها أطاب ...

— لا ! لا . ملحداً ... كان رامسكى ملحداً ؟ من يدرى ؟ ولكن الذى أعلم عن ثقة وبقين هو أنه كان يكره الفقر ، بعد أن رأى الفقراء ينزلون على جور الأغنياء ، والضعفاء يرضون بظلم الأقوياء . وقد سمعته مرة يقول فى حالة أشبه بالعبادة : «ليعسفنى الأغنياء على هذه الأرض ، وليرهقنى الأقوياء ، فانى لواقف يوم القيامة على باب الجنة ، أحول بينهم وبين عرائسها ومقاصيرها ، شاكياً إلى الله سوء ما لقيت ، رافعاً إليه الظلامات التى عانيت » .. هل هذه صلاة ملحد ... ؟ هل يذكر الملحد يوم القيامة وباب الجنة والإله ... ؟ ولكن رامسكى هذا نفسه قال لي ذات ليلة ، وكنا ندور حول كنيسة نوتردام دي پارى ، على مقربة من معرض جثث القتلى والغرقى والمنتحرين : « ألا إن فى الاجتراء على السماء والتسخط من مظالمها الترويحاً عظيماً للقلب المفعم بالهم ، المترع باليأس . يحلو لى يا دوشنكا ! أن أخصص كل يوم بضع دقائق للسماء أتمرد فيها وأثور ، فأسترجع لدنى ! » . هل أحب ؟ نعم أحب فى لوزان امرأة اسمها زينا ، أعنى زينا بيد كانت طالبة فى الجامعة ، ولكنها من ذلك النوع الذى نشأ فى أوائل الجيل ، الطالبات المتزوجات من طلاب زواجاً حراً . وكانت زينا رخيمة الصوت جداً ، وزوجها يتقن التوقيع على الكمان ، والنفخ فى الناى ... وكم يوم مشرق بهيج قضاه رامسكى فى دار زينا وزوجها ! ؟ وكم من لقاء حلو وحديث لذيذ ! ؟ حتى أصبح رامسكى أعز عزيز فى البيت ، وأحب زائر ، وأخاب جليس ؛ وكانت زينا تميل إليه وتحب قربه وتصبو إلى سمره ، حتى لقد كانت توصيه بشراء الفطائر والحلوى لتأكلها فى غيبة زوجها كالأطفال . أما أقول لك دار ... وبيت ... تسامحاً ... أو مبالغة ... لم يكن لهؤلاء الطلاب والمهاجرين الثائرين دور ولا بيوت . إنما كانت غرفاً معدودة مؤثثة بأبسط الأثاث وأفقره . زينتها جمال المرأة ووفرة الكتب وجنون الشباب الذى كان يغتفر كل شىء ولا يلقى إلى المستقبل نظرة . كانت الدار مكونة من غرفتين مطلتين على البحيرة ، وعلى محطة السكة الحديد ، جمال فى النهار والليل ، وحركة دائمة يقابلها سكون مدهش وجلال متجل فى طبيعة الجبال والأمواه وأضواء الأشعة المتلألئة ووجه زينا المشرق ، وصوتها العذب الحنون . فلم يلبث أن أصبح الشاب رامسكى من المتحمسين للموسيقى ...

ولم يكن هو يدرس شيئاً معيناً في جامعة لوزان سوى التوقيع على الماندولين والغناء أحياناً مصاحباً لزينا في اغريدها قطعاً من موسيقى فاجنر . نحن الروس شعب عجيب غريب الأطوار . لأن الذى تبرع ببناء الجامعة فى لوزان أحد مجانيننا الأغنياء لينال شهرة خاصة على حساب العلم والوطن ، قد تهافتنا عليها ، حتى حسبناها ميراثاً لنا عن آبائنا ، وحتى سنت حكومة مقاطعة (ڤو) قانوناً يحرم التحاقنا بالجامعة .. كانت الحوادث التى أرويها لك قبل هذا التحريم ولكن راكوفسكي زوج زينا شعر بتعقب البوليس السرى له ، لأنه كان من المشبوهين المتهمين فى مؤامرة تشاركوى سيلو التى قتل فيها دى ويت بطل تاميلهوف ، ففر بليل إلى ڤرسواه على مسافة ميلين أو ثلاثة من جنيف . وهو حين فر لم ينسَ صاحبه الأعز بفراره ، فلا تسل عن حزن رامسكى وابتئاسه ، فقد حرم سلواه الوحيدة ، ولقاء زينا وسمرها وحديثها الرطب الجميل .. وكان هذا الرحيل ممهداً للجفاء بين راكوفسكى ورامسكى ومدعاة للقطيعة والعداء .. على أن راكوفسكى كان رفيقاً بصاحبه ، حدباً عليه مكرماً له ، وكان يهتم بشأنه ويعنى بحاله ، وقد نصح له قائلاً : «تزوج وسافر» ولكن هذه النصيحة كانت فكرة أفلاطونية محضاً . لقد كان الزواج بغير حب مستحيلاً . ولم تكن امرأة تملأ قلب رافسكى سوى زينا .. ولهذا فإنه بعد ذلك الفراق المبتسر مرض مرضاً شديداً ، فانتقل إلى جنيف وسكن فى غرفة حقيرة فى شارع كاروج — ذلك الشارع الذى اتخذه المهاجرون الروس مستقراً لهم ، وكانت تلك الغرفة فوق « مغلق حشب » مطلة على جدار قائم مشوه بالاعلانات السخيفة ، وكان رامسكى يعيش أخشن العيش ويحيا حياة البؤس ؛ وكنت أنا نفسى أقطن غرفة لا تفضل غرفته فى حى « وابور النور » وكنا نجهز طعامنا التفه بأيدينا « على موقد الكحول » . وكان رامسكى معرضاً للصداع ، فإذا انتابه ياتى بنفسه بعد العشاء ملتطماً على المتكأ غير مستصبح بمصباح ، وكان بعض جيرانه يتشاورون فى أمره قائلين : « إنه لفقير ! لا يستطيع أن يشعل ولو شمعة واحدة » أى والله ! حتى جاءوه يوماً بمصباح ، فكان يشكرهم ويشرح لهم أوجاعه وعذابه ، ولكنهم كانوا لا يقولون عنه إلا « جارنا القديس ! » ولم يعلموا بأن فى نفسه من الألحاد والمرطقة ما يكفى لتكفير جميع القديسين وزندقتهم !

وفى تلك الآونة تلقى دروس الموسيقى فى معهد فيلهارمونى بجوار معبد اليهود ، ذلك السيناجوج العتيق الدميم الذى يحمل فى أعلاه خاتم سليمان ، كما يحمل الذنب القديم علامة سوابقه . وكان الأستاذ كريستانوف ياتى دروسه متطوعاً متبرعاً ، فلما رأى رامسكى وسمع صوته أيقن أنه عثر بكنز ثمين ، فانقطع لتعليمه وتدريبه ، وسمى حثيثاً حتى ربطت له إدارة المعهد مرتباً ضئيلاً يكفيه بالكد طعاماً وكساء .. ولكن أستاذه لم يلبث أن عرّفه إلى أعيان المدينة وهواة الفنون من الطبقة الغنية فكان رامسكي يمزح فى خيرهم ويحقد عليهم ، ويلعن النظام الذى قضى عليه بالحاجة إليهم ، وكنت أخفف عنه وطأة الغم والهم زاعماً أن هؤلاء الأغنياء بحاجة إلى جمال صوته . وقد تعرّف بآنسة بولونية تدعى منسكا ، وكانت سيدة حلوة المحضر ، جذابة الحديث ، لها فى الأدب قسط ومن الفن نصيب ، ولقد فرح بها رامسكى فرحاً عظيما فاقترحت عليه وهو فى وحدته تدعوه للاقامة معها فى بيتها فى

بولفاردى ماى ، فأذعن . وكانت ترأمه ، كما ترأم الأم وليدها ، وتعطف عليه وتهتم له ، وتريد أن تجد له زوجة تكون برداً على روحه الحزينة الوحيدة وسلاماً ، بل إن رامسكى كتب يقول لها : « لا أكذبك حاجتى ، أنا لا أريد إلا امرأة ! » .. من كان يظن ؟ هل سلا رامسكى فاتنته زينا وهي على قيد ميلين منه ؟ أم أن الفقر واليأس قطعا نياط قلبه ومحوا ذكريات الحب والعفة من صفحة ذهنه المشتعلة بنار الألم ؟

بيد أن الآنسة منسكا وجدت من توسمت فيها الخير لهذا المفتن الغريب الأطوار ، وهى الآنسة جوزال دربييه والمولودة من أم روسية لوالد سويسرى ، وكانت حسناء فاتنة لم تجز العشرين ؛ فأوقع بصر رامسكى عليها ، حتى توهم كل من رآه أنها نزلت فى حبة فؤاده وأنه راح فى جمالها صباً مدلهاً . ومضى شهر فسألها الزواج ، ولكنها قابلت ذلك بالرفض ، فظل مع ذلك فى قربها شهرين آخرين . ولكن لم يلبثا أن تقاطعا وتهاجرا بغتة ، ولا يعرف أحذق الناس ماذا يجري وراء الستار ، لأن جوزال نفسها والآنسة منسكا سكتتا عن ذلك ، ولم تشرحا لأحد أسرار هذه المأساة المغرية بالحزن والسخرية . ولم يخسر رامسكى هذه الرفيقة الحسناء التى أراد أن يظفر منها بالزوج المخلصة المطوف ، بل خسر من أجلها صداقة أستاذه كريستانوف لأنه اتهمه بالخيانة وارتياب فى سلوكه مع جوزال

* * *

وفى يوم من الأيام اختفى رامسكى فجأة من مقره ، وعلمنا بغتة أنه قتل كرافسكي صديقه القديم وزوج زينا الجميلة . وكنت قد تخرجت محامياً ، وأتيحت لى ممارسة تلك المهنة الشاقة فى مقاطعة جنيف ، ولكن قاضى التحقيق لم يكتف بتبرعى للدفاع عن صاحبى وأمر بانضمامى إلى بام ودمستر وهما محاميان يهوديان لم يشتهرا بشىء سوى القضايا التجارية ودعاوى الإفلاس ؛ وهذا الذى جعلنى أعتقد أن رامسكى يهودى ، وأن اليهود فى جنيف هم الذين اكتتبوا فيما بينهم بأتعاب هذين المدرهين للذين لم يحذقا الدفاع فى قضايا القتل — غير أننى كنت مدفوعاً بصداقتى وحبى وإعجابى ، وذكريات الشباب والألم — أكثر من الدوافع الفنية ، فلم تكن معلوماتى القانونية لتزيد عن معلومات الطالب الحديث العهد بالتخرج من الكلية ينقصنى التدريب وتنقصنى الحنكة ، ومرارة الاختبار فى الحياة ... فقدمت لقاضى التحقيق عريضة تقتضى استيفاء بعض نقاط التحقيق ، وقد استهللتها قائلاً : « إن حادثة القتل التى وقعت فى جنيف ، نمرة ١٩ شارع فيوجيراندييه ، ليست من السهولة كما يبدو للنظر السطحى المتسرع ، ليست من تلك الجرائم العادية التى تقود إلى السلاسل والأغلال ، وتسوق الجانى إلى الاشتمال بألبسة المجرم ، وسترة القاتل ، بل إن فى مصرع رالوفسكى المنسوب إلى صديقه رامسكى لعنصراً رهيباً أرهب وأغرب مما يظن الباحث السطحى أو المراقب المستهتر » وكأنى بهذه المقدمة لعريضتى قد فتحت أفقاً جديداً لقاضى التحقيق موسيو بوا تليفان ، ذلك الفاحص المدقق المرعب ، الذى لم يطبق قواعد الرحمة يوماً على أحد ممن أوقعهم سوء الطالع فى مخالبه . وكانت تلك العريضة مقدمة لاعتراف رامسكى الذى قال للقاضى :

« إن الرجل الذى قتلته أى ديمترى رالوفسكى ، كان رفيقى فى المدرسة وقرينى فى الجندية ، وابن

قريبتي ، وإن كانت وجهة درسي غير وجهته ، فهو رياضي وأنا موسيقار . ومحال أن يقال عني أني كنت أبغضه ، لأنه كان في نظري بطلاً ، وكيف لا يكون بطلاً وهو المتهم في مؤامرة تشاركوي سيلو التي قضت على حياة دي ويت أحد أبطال تاميلهوف ؟ لقد قيل لي من أقرب الناس إليه أنه متقلب في آرائه وعواطفه ومشاعره ، وإنه شديد التطرف في أفكاره المتحولة المتغيرة ، فكانت زوجته وأصدقاؤه يعتبرونه تارة طفلا وتارة امرأة ، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يحبونه ويغفرون له هناته وهفواته

وكان راكوفسكي يوم مقتله في الواحدة والثلاثين من عمره ، وكان متزوجاً من هذه السيدة زيناييد التي ادعوها توددا — زينا — وإذ كنت رأيتها يا حضرة القاضي وهي أرمل محزونة فما أنت بقادر على أن تعلم كيف كانت قبل القتل . إنها فقدت كثيراً . هذه وجنتها قد ذبلت ، وهذا خدها الأسيل قد أظلم ، وبشرتها الناعمة قد ظهر فيها التخدد والغضون ، وعينها لا تشرق ولا تبرق كما كانت بالأمس ، ولم تعد تضحك ، وكانت أبداً مومضة ضاحكة . وقد رأيتها عرضاً في « ساحة الخطى المفقودة [1] » فكدت أصعق للتغير الذي طرأ عليها . إنها لم تستطع أن ترمقني إلا بلحظة ساخطة متوحشة . واهاً للمسكينة !

لقد غضبت زينا يوماً على زوجها البطل ، بطل مؤامرة تسار كوي سيلو ، وفرت من بيته والتجأت إلى غرفتي الحقيرة بشارع كاروج ، وكنت أعلم أن زواجهما ارتباط عرفي لا عقد شرعي ، وأنا نفسي من دعاة هذا الارتباط العرفي ، فاحترمت أنوثتها ووحدتها ، وتركت لها فراشي ونمت على مقعد عتيق في دورة المياه . فلما رأت عفتي واحترامي لها أكبرتني ، فسألتها عن نيتها في العودة إلى دار صاحبها فأقسمت بأنها لن تعود إليه ، فانتهزت هذه الفرصة فسألتها يدها على نفس طريقة عشرتها لراكوفسكي ، فأعرضت عني وجعلت حرارة الرفض نصيبي ... ثم ضحكت ضحكا طويلاً عالياً وأنا الرجل القوي العنيد الذي لم يسكب عبرة واحدة ، ولا ذرفت يوماً دمعة منحدرة ، ولم أعرف الرعب ولا الخوف ، وقفت أمامها مرتجفاً مرتعداً ... ولكنها عادت بعد ضحكتها فاعتذرت قائلة — أتوسل إليك أن تصفح — فابتسمت أنا ، ولو استطعت الآن أن أصفح عن ضحكها ، ثم أنا بمستطيع أن أصفح لنفسي عن تلك الابتسامة . إنك يا سيدي القاضي لم تجد أي باعث على ارتكاب الجريمة فهل تجد اليوم باعثاً ؟ هل تزعم أنه الغيرة ؟ إن الغيرة من شأن الطبيعة الحادة ، والمزاج المستعر الناري ، وليست من شأن رجل هادئ المزاج رصين العقل ، بارد العاطفة كشأني . إذن فهل يكون الباعث هو الانتقام ؟ هذا أقرب إلى الحق وإن كانت إلا كلمة قديمة لإحساس جديد وشعور غريب مجهول . لا بد لي إن أقول أن زينا خيبت أملي وفضحتني أمام نفسي مرة أخرى ، كنت أعتقد أنها بعودتها إلى بيت ديمتري راكوفسكي — بطل مؤامرة تسار كوي سيلو — لن تجد الهناء ساعة واحدة ، وأنها ستندم على رفضها مطلبي . ولهذا السبب اجتهدت في تعجيل صلحها . ولا تنس أني لم أحاول السطو على سعادة أسرة ، فانها لم تكن قد رزقت منه بنسل . ولكن ديمتري قد راح بها صباً ، فأي فرق بين صب وصب ما دام الأمر خالياً

(١) ساحة الخطى المفقودة Pas Perdus فناء المحكمة لأن الناس يروحون ويجيئون في انتظار مجالس القضاء لعل هذا أصل التسمية والله أعلم

من الذرية والعقد الشرعى فى الحالتين ؟ ألا ترانى أكثر جمالاً وشباباً وأقدر على فهمها وإدراك عواطفها ؟ غاية ما فى الأمر ، لعلها لم تجدنى مطواعاً أوخروفاً كالآخر . فهى لم ترفضنى لأنها تبغضنى ، بل لأنها لا تستطيع أن تركبنى بغير سرج ولا لجام كما ركبت الآخر . فلما كنت فى جنيف في المرة الأخيرة وكنت زائراً بريئاً لا أفكر فى شىء من الماضى ، وذلك قبل مقتله بشهر جبهنى قائلا : « إننى مدين لك بهذه السعادة ! ثم التفت إلى زوجته وسألها : أليس كذلك يازوجتى العزيزة ؟ وما أكثر التجاء المتحللين من شرائط الزواج الشرعى إلى هذا الوصف ، كأنهم يطمئنون به إلى تسوية مركزهم أمام أنفسهم . ما أعظم أثر التقاليد فى العقل البشرى حتى لدى الذين تحرروا منها أو زعموا ذلك ... فنظرت إليه ثم تمتمت (نعم !) وضحكت عيناها فضحكت ، وضحكنا جميعاً وديمتري يضمها إلى صدره ، وكانا لا يستحييان من شىء أمامى . ثم قال ديمتري نعم ! إنك يا صديقى قد خسرت الصيد الذى كنت تبغى بعد أن أحكمت شَكَك !

هذه النكتة الباردة المؤلمة الثقيلة قصرت من حياته أسبوعاً كاملا . كنت أري وجهها المبتسم وعيناها الباهر المشرق الناعم فكنت أقول لنفسى : أنا سبب كل هـذا ! أردت أن أرسفها فى أغلال زوج مغفل بعد أن أفلتت من قيوده ، لكى ترى بنفسها مبلغ خسارتها يوم رفضتنى فاذا بى أراني قد أعدتها إلى الرجل الذى أحبت . لقد بدا لى موقفي غريباً ، كانت زينا تحب حديثى ومنازلتى فاذا انتهينا من الحديث والنزل تركتنى فى رفق مبتهجة إلى ذراعى ذلك الوغد ديمتري بطل مؤامرة تساركوى شيلو ! فأردت أن أنزل بزينا العذاب والألم ففكرت فى قتل زوجها ، وقد ألفت هذه الفكرة حتى لكأنها ولدت معى . ولكنى أردت أن تعلم زينا أننى أنا الذى قتلت زوجها وأريد أيضاً أن أتجنب عقوبة القانون ، وإن كان عقابى لن يغنى زينا عن نكبتها شيئاً . وقد زرتهما للمرة الأخيرة وكان ذلك قبل العشاء ، ومضينا نخوض فى حديث عادى وكنت أتكلم بدقة وإيجاز ، وجعلت عينى تستقر على عقرب الساعة وقد عزمت على أنى إذ تدق السادسة يجب أن أكون قاتلاً . حتى إذا بقى على الميعاد سبع دقائق نهض ديمتري عن المتكأ متثاقلا متبلداً وغادر الحجرة وهو يقول : سأعود بعد هنيهة . وهنا أخذت زينا ترتعش وتتمايل حتى أوشكت أن تقع كأنما صعقتها تلك القوة المتوحشة المفترسة المرعبة التى كانت تطل من عينى ؛ ثم وثبت إلى جانب زوجها وكان فى تلك الآونة قد رجع وتمتمت (ديمتري ديمتري ... إنه ...) فقال : ماذا تريدين ؟ فقلت فى صوت خشن مخيف إنها تعتقد أننى أريد أن أقتلك بهذا التمثال النحاسى . ورحت أرفع فى سكوت وخفة وصمت ، التمثال وتقدمت رويداً نحو ديمتري فشخص فيّ بصره مصفراً مذهولاً مبهوتاً وهو يكرر هذه الكلمات : « هى تعتقد » ورفعت ذراعى فى رفق وأنا أشير بالتمثال وألوح ، وبدأ ديمتري فى مثل رفق يرفع ذراعه وعيناه لم تغادرا وجهى فصحت به فى غلظة أن قف ! وعند ذاك تراخت ذراعاه وبقيت عيناه مستقرتين علىّ ، وبدت على شفتيه ابتسامة ضعيفة ذابلة وصرخت زينا صراخاً مرعباً مزعجاً ، ولكن الوقت قد أزف فأهويت على رأس صاحبى أضربه فوق جبهته وقد أنبأنى الطبيب أن جمجمة القتيل مفتتة مبددة ، مع أننى ضربت ديمتري ثلاث ضربات ليس غير واحدة

إذ كان واقفاً ، واثنتين وهو مطروح على أرض الغرفة . لقد كانت الضربات الثلاث شديدة قاسية ولكنها ثلاث لا تزيد » مكسيم رامسكى

لقد كان حلماً مروعاً ، انتقل فى طرفة عين من عالم الخيال ، إلى الحقيقة ، وتنظر القضاة بعين العلم إلى رامسكى ، وخشوا أن يوقعوا به العقاب الذى يستحقه القتلة ، لئلا يكون معدوم المسؤولية فيقعوا فى جهالة تفسد شهرة العدل . لقد وجد ديمترى راكوفسكى مقتولاً حقاً ، ولكن زينا زوجته وهى شاهدة الرؤية الوحيدة قالت إنه سقط من أعلى الدرج فجرح رأسه بحديد الدربزين ثم اصطدم فى حجر السلم ، ولم يكن رامسكى حاضراً ، ولكنه عند ما علم بمصرع صاحبه توهم أنه قاتله ، وهيأ له الخيال رسم هذه الصورة . وهذا الاعتراف الطويل البليغ ليس إلا وليد تلك المعقولية العليلة . وقد نمقها وهو متوهم أنه يدخل السرور على نفس القاضى بواتلقان ، الذى بدأ باستجواب الشهود بعد اعتراف المتهم فكذبوه جميعاً وفى مقدمتهم الأرمل المحزونة زينا . وقال الدكتور دراى : « إن فرحه بخلاص المرأة التى كان يحبها من ربقة الزواج السابق ، وتأكده أنها سوف تكون له بلا مزاحم ، أذهب عقله بغتة . هذا نوع من الجنون المؤقت المارض ويزول حتماً إن اطمأن المريض إلى نتيجة الحادث الذى أفقده صوابه » ولا يكون الاطمئنان المذكور إلا بزواجه زينا ولو زواجاً من ذلك النوع الذى يتم فيه التفاهم بالاتفاق العرفى ، ما دامت هى لم تكن تعرف سواه . ولكن من ذا الذى يشفع عند أرمل محزونة لم يمض على فقد بعلها بحادث مروع سوى بضعة أيام بحجة الحب الذى ملك على العرس لبه وأفقده صوابه حتى تخيل أنه قاتل الزوج الهالك

لقد كان كريستانوف الموسيقار النابغ أول أساتيذ رامسكى ، لا يزال مقيماً فى جنيف . ولكنه تحول عن بيته الأول بجوار معهد الموسيقى ، إلى بيت جديد فى خط سان جورج ، فقصدت إليه وشرحت له كل ماوقع لصاحبى ، فأبرز لى قصاصات من جورنال دى جنيف و « تريبون » وغيرهما فيها بعض أخبار تلميذه القديم وقال لى : « لو أسلم هذا الأحمق حنجرته وأذنيه إلىّ ، لكان الآن من كواكب اسكالاف ميلانو وأوبراهاوس فى نيويورك ، ولكن ذكورته كانت أقوى من ميوله إلى الشهرة ، وعلى كل حال فإن الذكورة اليقظة دليل على المواهب وأرى نظرى فيه لم يخب ... ولكن يا سيدى لم أعلم بعد سبب تشرفى بزيارتك »

قلت : أن تقنع مدام راكوفسكي بالزواج من صديقنا الذى يكاد يجن حباً بها

قال : آه زينا ؟ ولكن ألا تعلم أن هذا المجنون رامسكى كان اتهمنى بمنازلة خطيبته الأولى التى كانت عرفته إليها الآنسة منسكا البولونية ... وكانت تدعى الآنسة جوزال دوبيه

— إنه غيور فظيع . وحسناً فعل الدهر بالتفريق بينهما ، فقد كانت البنت تتقن الغناء من طبقة سوبرانو ، ولو وقعت لى لجعلتها تغنى سالوميه وتوسكاولوسى دي لامرمور ... والجمع بين نوابغ الموسيقى من رابع المستحيلات

وكان الأستاذ كريستانوف قد لبس معطفه وتناول قبعته وعصاه ، واستقللنا سيارته الفخمة التى أهداها إليه راجا كوترالا بعد أن عَلَّم محظيته (ممتاز بيجوم) أسرار الغناء الإفرنجى . وبعد دقائق معدودة كنا فى المصحة التى أعدت إحدى غرفها فى شيمان دى لاروزريه فى حى شاميل لتمريض العاشق

المفتون ... وما أن وقعت عين كريستانوف على رامسكى حتى صرخ قائلاً : « لا ! لا لا لا ! رارا ري ري صو ! سالو مون ديرنييه ماتان » فرفع المحموم بالحب والغناء عقيرته بتلك الأنشودة الخالدة المنتزعة من إحدى أوبرات فاجنر يردّد ألفاظها وألحانها وأنغامها كأنه مجموعة من البلابل تغرد فى دوحة فى أحلى أوقات الربيع

وكانت زينا لا تزال تقطن البيت الذى قضى فيه زوجها نحبه ، فزارها الأستاذ وعزاها واستدرجها حتى روت له خبر رامسكى وكيف أنه يتهم نفسه باطلاً بقتل زوجها ، لأنه كان يحبها ويطمع فى الاقتران بها ، فلما أخفق فى أمله اختل ميزان عقله ؛ فأشفق كريستانوف على هذا الدّنف المضنى ، ولما تمض ساعة على افتراقها ، وسأل زينا عن سبب إعراضها عنه فقالت : لقد كنت سعيدة السعادة كلها . وأما ديمترى (أى المرحوم بعلها) فلم يكن حبه لى فى أعشار قلبه ، لأنه كان يعجز عن أى حب عميق (فتنفس كريستانوف تفاؤلاً لأن بداية ذكر مساوئ الزوج المتوفى تدل على نهاية طيبة لصالح العاشق الذى على قيد الحياة) وكان القمار ملهاته يؤثره على مناعم البيت ومباهج الزواج ، ولكننى لم أكن أحب سواه ، لأنه كان أبداً متوعك الصحة ينتابه الصداع وينهكه الأرق . وكنت أرى فى تمريضه والعناية برغباته أعظم السعادة وأكبر النعمة وهذا الضعف ناشئ من حاجتى للأمومة

فقال كريستانوف : أى نعم ! المرأة يوم تحب تفقد شخصيتها والحمد لله ، لقد عوضك يازينا مريضاً بمريض وعليلاً بعليل ! لعلك لم تعطفى على رامسكى لأنه كان قويّا صحيح البدن معافى ... فلا تجدينه فى أقل حاجة إلى عنايتك . أما الآن فهو فى حال من تأصل الداء وتغلغل العلة تدعو إلى بروز رحمتك من خدر الكمد والحزن على زوجك الراحل لتتجلى فى حلل الجمال والجلال بالإحسان إلى هذا العليل الملهوف » فاغرورقت عين زينا بالدموع وسألت :

— أين هو الآن ؟ فأشار إليها كريستانوف بالاستعداد لاتباعه . فلما بلغنا المصحة حيث كان الدكتور إدوار كلابارييد يدرس حالته النفسية ليعنى بصحته على أساس علمى ووقع نظرنا عليه وجدناه شاحب اللون مخيفاً مرعباً ، وكان جبينه غارقاً فى لجة من العرق البارد . فلما أخذ بصره محبوبته المرجوّة ضحك وفتح ذراعيه وقال لها : تعالى فقبليني. فضحكت زينا ضحكة بلهاء وظلت جامدة فى مكانها ، فقال رامسكى : تعالى ! فارتجفت ، ثم احمر وجهها وبدت فى عينيها أمارات العطف وأقبلت نحوه ، فانكبّت على الخوان فى مظهر الذليل الخاضع المتوسل ثم ألقت بنفسها بين ذراعيه وهى تبكى بكاء الفرح

فنظر كريستانوف إلينا وقال : لم يعد لنا مكان هنا ، فقد اتصل العاشقان ، ولم يعد للشاب مكان فى هذه المصحة فقد شفى بوفاة زوج المرأة التى كان يحبها ...

وبعد ربع ساعة خرجت من نمرة ٢٤ شيمان دى لاروزريه بحى شاميل سيارتان تسيران ببطء ؛ الأولى تقل رامسكى وخطيبته التى لم يمض على ترملها عشرة أيام ، وفى الثانية الأستاذ كريستانوف الموسيقار أستاذ رامسكى وطبيبه الذي تعهد بإعداده لغناء فاوست ولوهنجرين بعد ستة أشهر ، وقد برّ بوعده . هكذا الحياة ... وهكذا الحياة ...

محمد لطفى جمعة

الفصل الخامس

السفير وحاجي بابا يسافران

أخذنا غير الخطابين المتقدمين خطابات أخرى من وزرائنا إلى وزراء الفرنجستان . ولم يبق علينا قبل السفر إلا أن نستأذن الشاه فاستشرنا المنجمين في الساعة المباركة التي يكون فيها سفرنا ، فاختاروا اليوم الذي مات في مثله عمر بن الخطاب لأننا نحن الشيعيين نتبرك بهذا اليوم

وقبل ذلك الموعد بيوم استأذنا الشاه . ودعا الشاه السفير الإنكليزي وكان جلالته جالساً على عرش مرصع بالجواهر ، وكذلك كان البساط والوسادة التي يتكىء عليها ، وكان رئيس الوزارة ووزير المالية ووزير الخارجية واقفين على سلم العرش عندما دخل « ميرزا فيروز » ودخلت من ورائه . فاستدعى الشاه أولنا وتركت واقفاً بالباب

وقد رأى « فيروز خان » أن واجب اللياقة في هذا اليوم يقضي بأن يتصنع هيئة الحزين . وجثا أمام العرش بحالة تدل على أنه مجرم يطلب العفو أكثر من دلالتها على أنه سفير عين ليمثل الشاه

قال الشاه : « لماذا يبدو عليك الحزن ؟ هل تريد التخلص من المهمة التي عهدنا بها إليك ؟ » فتصببت الدموع من عيني السفير وقال : « كلا . كلا ، ولكني آسف يا جلالة الشاه على فراقكم »

سر الشاه من هذا الجواب وقال : « أحق هذا ؟ إنه ليرضيني منك أن تذهب إلى حيث وجهتك فتبيض وجهي في بلاد الفرنجة »

قال السفير : « إن شاء الله ! وردد الوزراء الثلاثة هذا الدعاء » ثم ابتسم الشاه وقال : « إنك ستتعرض في أثناء السفر لأخطار البحر وستتعرض في أثناء الإقامة لمعاشرة غير أبناء دينك . ولكنك سترى العجائب والغرائب من العادات والأخلاق . وسترى كل ما يخطر ببالك وأنت مقيم في فارس »

فقال ميرزا فيروز : « أطال الله عمر مولانا الشاه ولا قصر ظله . إنني أقل من التراب . وكل ما أتمنى أن يبيض وجهي في تلك البلاد لترضوا جلالتكم عني ، ولي قبل السفر أمنية أضعها على أعتاب عرشكم — ثم سكت منتظراً جواب الشاه . فقال الشاه بعد فترة : « قل ! »

قال فيروز خان : « إنني أطال الله عمرك سأتعرض للموت في البحار المتلاطمة الأمواج بين مملكتك السعيدة وبين الفرنجستان . وخطر البحر لا يذكره فارسي إلا وقلبه يرتجف . وأمنيتي أنه عند سفري يكون أهل منزلي وابني الصغير موضع عطفكم ورعايتكم وقد بسطت هذه الأمنية وجلالتكم الرأي فيها »

فقال الشاه : « أقسم برأس الشاه أن أحقق

هذه الأمنية . ضع رأسك على وسادة الثقة لأنه مهما يحدث لك فابنك عندى بمكانة ابنى . وقد عينته منذ اليوم بوظيفة فى القصر على الرغم من صغر سنه . وسيتلقى العلم مع أبنائى على أن يتسلم فيما بعد مقاليد عمله . وأجريت منذ اليوم رزقاً على أهل منزلك فكن مطمئناً »

عند ذلك جثا « فيروزخان » مرة أخرى حتى لمس الأرض بجبهته وهتف الوزراء الثلاثة : « ماشاء الله ! ما شاء الله »

وهنا حضر السفير الانكليزى ومعه شاب من أبناء جنسه وهو الذى عين مترجماً للسفارة الفارسية فى لندرا وجعل « مهمندار »

أذن لهما الشاه فى الجلوس فانحنيا ثم جلسا . وقال الشاه : « هذا اليوم سعيد الفأل على الدولتين يا جناب السفير . وإنى لأرجو أن يؤدى تعيين السفير الفارسى عندكم إلى الزيادة فى حسن التفاهم »

فانحنى السفير الانكليزى مرة وقال إنه يتمنى دوام العلائق الحسنة بين دولته وبين إيران . فقال الشاه : « أرجو أن ينال سفيرى الحظوة فى دولتكم وأرجو إبلاغ حكومتكم أنه حائز لثقتى وإنى إظهاراً لهذه الثقة أخلع عليه هذا البرد »

ثم خلع الشاه برده وأعطاه لفيروزخان فلبسه وقبل الأرض . وهنأه الوزراء على هذا الشرف الرفيع ، ثم سأل الشاه السفير الانكليزى هل هو راض عن الهدايا التى سترسل إلى ملكه ؟ فأجاب السفير على ذلك بكلمات لطيفة وقال إنه لا ينقص هذه الهدايا إلا صورة الشاه فى إطار جميل

عد الشاه هذا الجواب بديعاً ، وقال إنه كان ينتوى ذلك وإن صورته لديه الآن فى إطار مرصع بالأحجار الكريمة . وتحت هذه الصورة أبيات من الشعر نظمها شاعر الدولة « عسكرخان » وقال إن هذه الصورة مرسومة على مرآة حتى إذا ما نظر إليها شاه الانكليز رأى وجهه بجانب وجه الشاه الفارسى . وقال إن هذا الخاطر البديع من مقترحات عسكرخان . وإنه فأل لتوثيق العلائق بين الملكين ودولتيهما

ثم أخرج الصورة التى تقدم ذكرها من تحت الوسادة . وأمر باحضار عسكرخان ليقرأ الأبيات أمام السفير فحضر وأنشدها انشاداً جميلاً لجمال الخط الذى كتبت به . وهذا معنى الأبيات :

« اذهبى أيتها الصورة المحسودة مزدانة برسم ملك ، فإذا ما وصلت للملك الآخر صرت مزدانة برسم ملكين . وكما ترتسم عليك رأسان متوجان فكذلك سترتسم على مرآة المحبة دولتان صديقتان ، وسيكون صديق كل دولة منهما صديقاً للدولة الأخرى والعدو عدوهما جميعاً

« إذهبى أيتها المرآة المحسودة واجمعى على صفحتك الصافية بين الأخوين »

دهش الجميع من جمال هذا الشعر ومن افتنان قائله . وأكد السفير الانكليزى للشاه أن الملك « جورج الثالث » سيسر كل السرور بهذه الصورة وبالأبيات

كنت فى أثناء هذه المدة الطويلة واقفاً عند الباب لا أجرؤ على الدخول ولا يدعونى أحد ، فلما كاد المجلس أن ينتهى وأمر الشاه « فيروزخان » بالانصراف أشار إلىّ بأن أتقدم فتقدمت وقبلت الأرض ، ودعوت لجلالته بطول الحياة فأمرنى بالوقوف وقال لى : « كن دائم اليقظة وتعلم الأشياء

النافعة لنا .. تعلم أكثر ماتستطيع تعلمه من اللغات الفرنجستانية لتترجم بعض كتبهم فإذا فعلت ذلك كنت مستحقاً عنايتنا الشاهانية

قلت : « على العين والرأس كل ما تأمرون به يا صاحب الجلالة »

ثم تقهقرت وخرجت مع فيروزخان . وكان أول مكان ذهبت إليه قبر حبيبتي « زينب » فدفنت عنـد ذلك القبر مائة « طومان »[1] لعل فقيراً مستجاب الدعوة يجدها في وقت من الأوقات فيدعو لصاحبة القبر بالرحمة

الفصـل السـادس

أعضاء السفارة

كانت السفارة الفارسية فى لوندرا مكونة من : ميرزا فيروز خان (سفيراً) . ميرزا حاجى بابا بك (سكرتيراً) . محمد بك (تشريفاتى) . إسماعيل بك (أمين مشتريات) . أغا بك (رئيس الركائب) . هاشم بك (رئيس الخدمة) . عباس بك (ياور) . حسين بك (ياور) . تقى الدين (فراش) . صادق (سايس) . فريدون (حلاق) . حسن (طباخ) . محبوب (رقيق وأمين صندوق) . سـيد (حاجب السفير)

وفضـلاً عن هؤلاء فقد كان معنا عدد كبير من خدم الاصطبل . وكان معنا أيضاً هذا الترجم الإنكليزى الذى لقبناه بمهمندار السفارة ؛ وكان قليل الإلمام باللغة الفارسية حتى لا يكاد يقوم بواجب الترجمة قياماً صحيحاً

ولقد كنت أقل الأعضاء أسفاً على فراق فارس لأنه ليس لى قريب فيها ، وكان أكثرنا حزناً على فراق فارس هو السفير نفسه لـكثرة من ترك من الباكين على بعده ، وهم العبيد والجوارى وزوجته وابنه وأصدقاؤه

وكانت بلاد الفرنجستان فى نظر الفارسيين بلاداً تكاد تكون خيالية لا وجود لها إلا فى القصص . سواء أكانت حقيقية أم خيالية فإنها فى نظرنا بلاد ممقوتة لأن أهلها يأكلون لحم الخنزير

ولقد اشتهر عنى شهرة لا أعرف سببها ، أننى ملم بأخلاق الأوربيين وعاداتهم ، ولعل منشأ هذه الشهرة أننى كنت وضعت تقريراً عن أوربا وقدمته للشاه مستعيناً على وضعه برجل تركى كان موظفاً بالآستانة

وكان أعضاء السفارة يسألوننى : هل فى البلاد التى سنذهب إليها طعام غير لحم الخنزير أو شراب غير الخمر ؟ وأخذ أمين المشتريات مقداراً عظيماً من الأرز خشية ألا يوجد شىء منه فى تلك البلاد كما أخذ عدة زجاجات من شراب شيراز . وأخذ حلاقنا يتساءل : هل فى انكلترا صالون ؟ وتساءل الطباخ : فى أى نوع من الأوانى ينضج الأوربيون طعامهم ؟

ولا يفوتنى هنا أن أذكر أن الترجم الإنكليزى أرسل لحيته وشاربيه منذ أن انضم إلينا . وكان أغلب ظننا من قبل ذلك أن الفرنجة خلقوا وليس فى وجوههم منابت للشعر كأنهم بعض نسائنا

وكنت منذ عودتى من (أصفهان) أفكر فى الوسيلة التى أعامل بها «فيروز خان» بعد أن وثقت أنه يسىء الظن بى ويحسبنى سأتجسس عليه لرئيس الوزارة الذى اختصنى دونه بمهمة جمع الهدايا والذى هو عدو له لا يتكتم العداء

رأيت أمام ذلك أن أسلك مع السفير مسلـكاً

(١) عملة فارسية

حسناً لكي يزيل من ذهنه هذه المخاوف ، وكنت أعرف الجانب الضعيف من نفسه ، فسهل ذلك أمر إرضائه علىّ ، فإن تجاربي السابقة دلتني على أن النفاق هو أحسن الوسائل لاستجلاب ود الإيرانيين ، فإذا ما استطاع أى إنسان أن ينطق بالكلمات المسولة فلن يصعب عليه اقتياد أي إيرانى من لحيته

ولأجل أن أتمكن فى كل فرصة من منافقته التزمت أن أساير فى كل طريق ولا أتحرك إلا وفق حركته ، ولا أسير حتى يأمرنى بالمسير ، ولا أذهب إلا حيث يوجهنى ، وأن أوافقه على كل رأى وأطريه عند كل مناسبة . وقد كان يحسب نفسه خطيباً مفوهاً ويفتخر فى كل مكان بأنه إنما ندب سفيراً لفصاحته وذلاقة لسانه وقوة جنانه . وهو يعلم وكل الذين حوله يعلمون أن رئيس الوزارة إنما بعث به للسفارة ليستريح الناس من ذلك اللسان

لكننى آليت على إرضائه فصرت أفسح له طريق القول بكثرة الاستفهام وحسن الاستماع . وكان كثيراً ما يجره الكلام إلى الاندفاع فى التعبير عن ضغائنه والتهور فى وصف خصومه . وكان فى هذه الحالات يترك الحذر فيتكلم أمام الخدم والأتباع بكل ما يروقه ، فقبل سفرنا بساعات قلائل ذكر اسم رئيس الوزارة فقال : « أرجو الله أن يحرق عظام أبيه فى قبره ! أرجو الله أن تتزوج أمه من حمار مثل أبيه ! أدعوه تعالى أن يسلط عليه مائة كلب تمزق لحمه وتنهش عظامه ! إن شاء الله سأتمكن من الأخذ بثأرى فأنه السبب فى بعدى عن أهلى ونفيى من هذه البلاد »

ثم نظر إلىّ وقال : « أنت يا (حاجى بابا) رجل عرف الدنيا وخبر أهلها فهل تظن أن الشاه سيذكرنى بعد أن أغيب عن بلادى ؟ وهل سيمتنع رئيس الوزارة عن دس الدسائس وإثارة الوشايات ؟ »

فقلت : « إن كل ما تظنون هو الصواب ، وإن كل كلمة تقولونها هى الحق ، وإن اشتهاركم بذلك هو الذى جعل الشاه يختاركم للسفارة . وأنت تعرف الوزراء والأعيان فقل لى بالله من فيهم يصلح لتمثيل الشاه أمام الملوك الأجانب غيرك ؟

إن الذى أعتقده أن الشاه قد اختارك من تلقاء نفسه بغير تأثير ولا اتباع مشورة لما يعرفه عنك . وإلا فقل لى إذا هو لم يختارك فأى إنسان كان يختار ؟ »

قال فيروز خان : « لا أحد يا حاجى بابا ... لا أحد يصلح لها غيرى ! لقد صدقت »

وقال التشريفاتى : « ما شاء الله ! مَنْ مثل مولانا فيروز خان فى صفاته ؟ إنه أذكى الأذكياء وأفصح الفصحاء »

وقلت : « نعم ! نعم ! لقد اختاره الشاه من أجل ذلك ، وإذا كنا جميعاً نعرفه فالشاه لا يجهله ، ولذلك كان اختياره فى موضعه »

وقال التشريفاتى : « إن جلالته ثاقب النظر صائب الرأى » . وقلت : « ليس لمولانا فيروز خان نظير فى العالم كله » . وقال التشريفاتى : « أنظر إلى شخصه ! ما شاء الله ! إنه أجمل الشباب وأقوى الرجال فهو الذى يمثل الشاه وليس أى إنسان سواه بصالح لتمثيله »

وفى أثناء ذلك كان ميرزا فيروز خان يصغى إلينا وغضبه يتحول إلى سرور . والتفت إلينا بوجه متهلل بشراً وقال : « الحمد لله على هذا المنصب فان الذى قلتموه أعجبنى وقد رأيته صدقاً »

الفصل السابع

سافرنا من طهران ، فلما وصلنا إلى تبريز أقمنا بها بضعة أيام جمعنا فى خلالها هدايا أخرى . ثم سافرنا إلى بلاد الأرمن وهى بلاد جرداء قاحلة قامت مدنها على سفوح جبال مكللة قممها بالثلوج . ثم تجاوزناها إلى بلاد الكرد فأرضروم . وهذه بلاد تابعة للترك يحكمها باشا يلقب نفسه ـ للإرهاب ـ بلقب البابا ذى الثلاثة الأذناب . وقد زارنا وأكرمنا وقدم للسفير هدية مثل هديته . لكنه حدث فى اليوم التالى حادث أوجد سوء التفاهم بين السفير وبين الباشا . وذلك لأن السائس صادق تخلف عنا بغير إذن ، ثم اتضح أنه ذهب إلى بلاد الأرمن لغرض من الأغراض ففضب السفير وأقسم أن يقطع أذنيه

ولما عاد سجنه أعضاء السفارة حتى ينفذ السفير حكمه فيه . ولكن الباشا التركى علم بالأمر ، ورأى أنه ليس من حق أحد غيره أن ينفذ الأحكام فى هذه المدينة ، فأرسل أحد موظفيه لإقناع فيروزخان بالعدول عن عزمه حتى يغادر الأراضى التركية

كان السفير محاطاً بأتباعه عندما جاء الموظف التركي ، وكان السفير لا يزال فى حدة الغضب والكلمات القاسية تتدفق من شفتيه ، فحياه الموظف بالسلام ثم جلس أمامه باحترام

قال السفير : « لماذا جئت ، وماذا تريد ؟ » فاستغرب التركى لهجة السؤال وقال : « لا شىء ! »

قال السفير : « هل علمت ماذا فعله هذا الكلب ؟ لقد غاب بغير إذنى ليرتكب المنكرات فى بلاد الأرمن . إننى لن أترك هذا الذنب بغير عقاب . إننى لا أترك الخير دون أن أؤديها ، وقد حلفت لا أشرب الماء حتى تصير أذناه فى جيبى . فاطمئنوا إلى ذلك يا أفندى »

قال الأفندى التركى : « إن مولاى الحاكم يهدى إليكم صباحاً شريفاً ويبلغكم أن هذه العقوبة غير مسموح بها فى هذا البلد » فاحتد السفير وقال : « ما هو غير المسموح به ؟ ما هو ؟ ما هو ؟ ألا أقطع أذنيه ؟ أنت لا تعرف ميرزا فيروز . أقسم برأس النبى وبالخبز الذى أكلته عند الشاه وأقسم بروح الباشا وبقبرك أيها الأفندى ، وأقسم برأس على أيضاً ألا أذوق الماء حتى تكون أذنا صادق فى جيبى . إننا فارسيون ولا يردنا عما نريده كلمة من الباشا »

قال التركى ولم يهتم أقل اهتمام بحدة السفير وانفعاله : « ولكن الباشا ذا الثلاثة الأذناب أمرنى أن أبلغك بأنه لا يسمح لأحد بقطع آذان الناس فى بلده » فصاح السفير الفارسى كالمجنون ! « ثلاثة أذناب ! هل يهددنى بأذنابه الثلاثة ؟ قل له إن أذنابى خمسة عشر ! قل له إنها سبعون ! قل له إن لى ألف ذنب ! ومادامت أذنابه قد دخلت فى الموضوع فان أذن صادق ستقطع — ستقطع — ستقطع »

ثم نادى بالفراش أن يأتى فى الحال بأذنى صادق ولعنه ولعن سائر أعضاء السفارة . ثم التفت إلى الموظف التركي وقال وهو يتكلف العقل : « أبلغ الباشا تحياتى وقل إنه إن كان له ذنب واحد فلى خمسة عشر »

عند ذلك وقف التركى وانحنى ثم خرج وهو يقول : « لا إله إلا الله ! » وعاد فى الردهة بالفراش عائداً وفى يده طبق به أذنان يسيل الدم منهما ، ففهم أنهما أذنا صادق

وبالرغم مما أبداه سفيرنا من الجرأة، فانه أدرك أن البقاء فى المدينة أكثر من ذلك يعرضه للخطر فقرر الخروج منها فى نفس اليوم ، فخرجنا ما عدا صادق فانه أعيد إلى طهران بأمر السفير ، وقد علمت أنه عاد وأذناه فى رأسه لأن الفراش قطع أذنى تيس وجعلهما كشكل أذني إنسان إرضاء للسفير فى حدته

وصلنا إلى الآستانة فرحبت بنا السلطات التركية وخصصت لنا قصراً فى اسكوتارى وعينت لنا مترجماً تركياً فى أثناء وجودنا بالعاصمة . وفى هذا الوقت تركنا مترجمنا الانكليزى ، وأقام فى السفارة الانكليزية التى زرناها . ورد لنا السفير الزيارة . وبعد بضعة أيام سافرنا إلى أزمير التى يسميها الأتراك أزمير الكافرة ، اتركب منها السفينة التى تقلنا إلى بلاد الفرنجستان

وقبل مغادرتنا الآستانة زار سفيرنا « الصدر الأعظم » وأهداه هدية مثلها . وبالرغم من العداوة المتأصلة بين الأتراك وبين الفارسيين ، فقد أظهر الوزير التركي عطفه علينا لما أخبرناه بأننا سنسافر إلى بلاد الانكليز . وحذرنا من مكرهم وخداعهم وقال إنهم دهاة يتلاعبون بأقوى الرجال

لكن الاتراك أقدر منا على كتمان ما بأنفسهم ولذلك لم يظهر لنا أحد الأتراك عداوة بعكس فيروزخان الذي أظهر عداوته للترك فى عدة مواضع . فمن أمثلة ذلك أنه اجتمع فى حفلة مع بعض الأتراك العصريين الذين يشربون الخمر ويستمعون إلى الغناء فى السهرات العامة . فقال أفندى تركى إن الموسيقى التركية قد أصبحت من أرقي موسيقات العالم لتطورها وتشبعها في العهد الأخير بالروح الأوربية وقال إنه يسمع الموسيقى الفارسية فيخال أن المطر يتساقط

فأجابه سفيرنا محتداً : « وأنا أسمع الموسيقى التركية فأخال أن الحمير تنهق »

الفصل الثامن

التركسية

كان ممن زارونا أيضاً مدة وجودنا فى الآستانة وزير الخارجية وكبار الموظفين فى تلك الوزارة ، وكان وزير الخارجية مشغوفاً بآداب اللغة الفارسية فأهدى سفيرنا نسخة مذهبة من ديوان حافظ الشيرازى . وكان هذا الوزير واسمه يارك افندى من أرق الناس وأكثرهم أدباً وظرفاً ، وقد أهداه السفير جواداً لما علم من محادثته أنه من هواة الخيل . ولكن هذه الهدية أوقعته فى حيرة لأنه لم يعرف كيف يرد لنا الهدية التى تقابلها . فعندنا منسوجات أجود من المنسوجات التركية ، وكذلك الشيلان والسجاجيد ولا يليق أن يهدينا من البضائع الانكليزية ونحن مسافرون إلى انكلترا . ولكنه بعد تفكير وجد ضالته وعزم على أن يهدى السفير الفارسى جارية شركسية أجمل من القمر ليلة النصف ، وقال إنه اشتراها من تاجر من تجار الرقيق يدعى « خرسيس أوغلو » ، وإن ذلك التاجر أخبره بأنها أميرة من أميرات بلادها ، ولكنه لا يصدقه وهو يرجو على كل حال أن يسر « فيروز خان » بهذه الهدية

طلبنى هذا الوزير التركى وعرض علىّ أن يرسل هذه الهدية إلى مولاى فتظاهرت بأننى أجهل ذوقه ووعدته بأن أستشيره وأخطره برأيه

ولما عدت إلى السفير أخبرته فرفض الهدية فى

بادئ الأمر ثم تردد فى قبولها ، ثم رأي أنه لا يليق رفضها ، فوافق على شرط إخبار الوزير بأنه كان يود أن تكون الهدية من نوع آخر

وعند انتهاء هذا النهار جاء خادم الوزير يقود جواداً على ظهره هذه الشركسية مبرقعة لا يظهر شيء من وجهها ولا من جسمها فأعطى السفير الخادم التركى مبلغاً كبيراً من المال . وذهبنا لنزور الشركسية ثم اجتمعنا بعد ذلك ولم يكن السفير بيننا فقال التشريفاتى : « لو كانت زوجة السفير حاضرة لضربته حتى مزقت جلده على قبول هذه الجارية »

وقال تقى الدين : « إن السيدة بعيدة عنا الآن وستتغير الأحوال قبل عودتنا »

وقال سعيد : « لو أن الجارية من أى جنس آخر لكان شرها مأموناً . أما وهى شركسية فإن خطرها شديد لأن هذا الجنس ملعون »

فقلت : « ليس لنا إبداء رأينا فى هذا الشأن فالجارية متاع خاص من أمتعة السفير وهو وحده صاحبها »

قال الجميع : « نعم نعم وإننا لنكون أحط من الكلاب إذا ظننا غير ذلك »

وفى الصباح التالى أخبرنى السفير بقصة الجارية كما سمعها منها ، وهى أنها بنت زعيم شركسى كان يقيم بالقرب من شاطئ البحر الأسود . وكان لقسوته على قبيلته يلقب بابن الشيطان ، وكان سكيراً يندفع وراء عواطفه إلى الغايات ، وكانت المغامرة أحب شيء لديه فهو يضحى من أجلها بكل شيء ، وقد تراهن مع زعيم قبيلة مجاورة وهو أغنى وأقوى منه ، فجر على نفسه الدمار ، لأنه اضطر بسبب الخسارة التى لحقت به إلى بيع كل شيء من أملاكه وأرقائه على أن ذلك لم يكف فلجأ إلى وسيلة لا يلجأ إلى مثلها إلا شيطان مثله . وذلك بأن دعا عدداً من أفراد القبيلة إلى حفلة شراب فلما سكروا استدعى تاجر الرقيق فحملهم بواسطة أعوانه إلى الشاطئ ونقلهم على السفن . ولكن التاجر نقل معهم بعض أفراد الأسرة ومنهم زوجة الزعيم وابنتاه وابناه وأخوه

وفى أثناء الطريق رأوا كاهناً يمشى فنقلوه أيضاً مع الرقيق ، وقد بيعوا إلى أفراد مختلفين . وكان حظ الشركسية فى بيت الوزير ، وعرف أن اسمها مريم ولكنه أصر على تسميتها باسم « دلغريب » أى مستعبدة القلوب لما لجمالها من سلطان

وقد وصف السفير جمالها بأنه أروع ما رآه . ووصف ذكاءها بأنه نادر ، وقال إنه سيعلمها الفنون المختلفة التى تجعل لها مكانة ممتازة فى بلاد الأوربيين وقد وجد عندها أتم استعداد لتعلم الخياطة والطبخ والرقص والموسيقى والغناء ، وكل ما تمتاز به امرأة على أخرى . وقال إنها لا تعرف شيئاً عن الدين ، ولكنها قبلت أن تكون مسلمة ونطقت بالشهادتين

قال السفير : « من يدرى ؟ لعلها تكون سبباً فى سوء حظى أو رفعته »

الفصل التاسع

أعضاء السفارة يغادرون أزمير على ظهر الباخرة

وصل إلينا الخبر بأن باخرة انكليزية تحرسها مدرعة حربية فى انتظارنا بأزمير لتقلنا إلى لندن . فسافرنا إلى تلك المدينة ووجدنا فيها — خلافاً لما نعهده فى البلاد الأخرى — عدداً كبيراً من التجار الأوربيين واليونان والأرمن . ولعل الأتراك سموها

من أجل هـذا السبب بالمدينة الكافرة . وأهلها يشربون الخمر جهاراً فى الأماكن العامة والخنازير تمشى فى أزقتها . وقد نزلنا فى هذه المدينة بمكان أعدته لنا الحكومة

نقلت أمتعتنا وخيولنا إلى السفينة التى سنسافر عليها كما نقل إليها مقدار عظيم من الماشية واللبن والطيور والماء

وسئل السفير هل يحب أن ينام على سرير ثابت أو متحرك ؛ فعجبنا من هذا السؤال لأننا لا نعرف مكاناً للنوم غير المراتب المحشوة بالقطن والتى ننقلها ونبسطها على الأرض وننام فوقها . وتركنا الاجابة على السؤال حتى نعاين النوعين فى السفينة واتضح لنا فيما بعد أن السرير الثابت فى السفينة هو الملتصق بحائطها ، وأن السرير المتنقل يثبت من أطرافه الأربعة فى الحائط وليس بينه وبين الأرض قوائم

وقد كنا نجهل شكل السفن لأننا لا نعرف فى بلادنا غير الزوارق . ولكننا لما رأينا السفينة دهشنا لأنها مدينة صغيرة ، ففيها غرف وشوارع وأماكن للخيل وأخرى للبضائع وأماكن خاصة بالآلات البخارية

ولمعرفة الترجم بعاداتنا أوصى بأن يجعل فى السفينة مكان للشركسية بعيد عن أنظار الرجال . ولما طلب إلينا الاستعداد للسفر استدعى السفير التشريفاتى « محمد بك » وهو على علم بمبادىء الفلك . وأمره أن يبين لنا الوقت المناسب للسفر . وقبل أن يجد الفرصة الكافية لأبحاثه فى النجوم جاء ربان السفينة مع الترجم واستعجلنا وقال :

إن هـذا أنسب وقت للسفر فالريح ملائمة . لكن السفير رفض أن يتحرك حتى تدله النجوم على الساعة الميمونة . وإنه مهما تكن أفكار الانكليز فانه غير مستعد للمخاطرة بحياته فى البحار وبسفينة يقودها الكفار إلا فى ساعة ميمونة

وعبثا حاول الترجم والربان إقناعه بأنه ما دام الأمر متعلقاً بالسفر بحراً فالساعة الميمونة هى التى تهب فيها الرياح الملائمة . وإنه إذا أصر على التأخر فربما تغير الجو واضطرت السفينة إلى التأخر لموعد آخر قد يكون أيضاً ملائماً للرياح ولكنه لا يلائم علم الفلك

وعندما يئس الانكليزيان وهما بالذهاب حدث حادث عدداه فألاً واستغنيا به عن علم الفلك ، وذلك أن السفير عطس مرتين ، وكل فارسى يعرف أن هذا الفأل الحسن يدل على أن الساعة مناسبة للسفر فقال السفير : « الحمد لله لقد أذن الله لنا بالانتقال » وأعلن موافقته على السفر

فلم ينتظر الانكليزيان حتى تضيع هذه الفرصة بل طلبا إلينا القيام فى الحال ، فمشى السفير ومشيت بجانبه ووراءنا الربان والترجم ثم سائر أعضاء السفارة فلما وصلنا إلى الشاطىء سمعنا صفيراً يصم الآذان ، ثم رأينا على سوارى السفينة أناساً من الانكليز كالبهلوانات يمشون فوق الحبال (كالشيخ على) بهلوان شيراز ؛ وفى أقل من لحظة رأينا هؤلاء البهلوانات يرفعون الأعلام على السوارى ، والغريب أنه على كثرتهم لم يقع أحد منهم عن الحبل وإن فيهم عدداً من الصغار فى السن لا يقلون مهارة عن كبارهم

ولما صعدنا سلم السفينة ازعجنا أشد انزعاج لأن مدفعاً فيها أخذ يطلق القنابل فكادت أرواحنا تفيض من الفزع ، وقال السفير : « بسم الله الرحمن الرحيم ! ما معنى إطلاق المدافع الآن ؟ هل أعلنت الحرب فجأة ؟ وسكتنا جميعاً لأننا لم نجرؤ على الكلام

حتى انقطع دوي المدافع ووقف المترجم الانكليزي أمام السفير وقال : « إن المدافع أطلقت تكريماً لسعادته وأن الانكليز لا يحيون بهذه التحية غير الملوك وممثليهم »

فقال السفير : « أشكر لكم هذه التحية وإن كنتم أزعجتموني . ولكن لماذا هذا الاسراف في القنابل ؟ إن عدد الطلقات التي أطلقت تكفي لتخريب مدينة « طوس » فكم عدد المدافع التي تملكونها ؟ »

فأجابه المترجم : « في هذه السفينة ٤٤ مدفعاً وهي مدافع صغيرة لا تستعمل في الحرب وعدد المدافع التي تملكها الدولة لا يحصى »

قال السفير : « هل تعني أربعاً وأربعين بالعدد أم على سبيل التقدير كما تقول ستين يوماً مثلاً أو أربعين ليلة ، والقصد أنها أيام وليال كثيرة ؟ »

فقال المترجم : « كلا بل أقصد إلى العدد بالذات » وقال ربان السفينة بواسطة المترجم : « إن بعض السفن تحمل أربعة أمثال هذا العدد أو أكثر وأحجام مدافعها أكبر كثيراً من أحجام هذه المدافع »

قال السفير : « لا إله إلا الله ! » ثم التفت إلينا وقال : « ألم أقل لكم إن الانكليز يجدون المدافع بهذا الشكل في مناجمهم ؟ لقد صدق رأيي فان مئات من الأعوام لا تكفي كل الحدادين لصنع هذا العدد من المدافع

فقلنا : « نعم نعم نحن آمنا وسلمنا بما قلت ساعة أخبرتنا به . إن هؤلاء الانكليز كالشياطين ليسوا كالرجال ، وستجد أحاديث غريبة نتحدث بها عنهم عند ما نرجع إلى إيران »

ولم نكد نفرغ من حديث قصير أقل من النية للصلاة حتى رأينا السفينة تتحرك على ظهر الماء فقال السفير : « لقد أصبحت أرواحنا في يد الله فمن يدري هل نعود إلى أهلنا سالمين ؟ »

ثم تلا كل منا الشهادتين استعداداً للموت

(يتبع) عبد اللطيف النشار

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية

ص

٥٠ السنة الأولى في مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة في مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً في الخارج عن كل مجلد

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧